


ميرنا المهدي



دليل جدتي لقتل الأوغاد





رواية



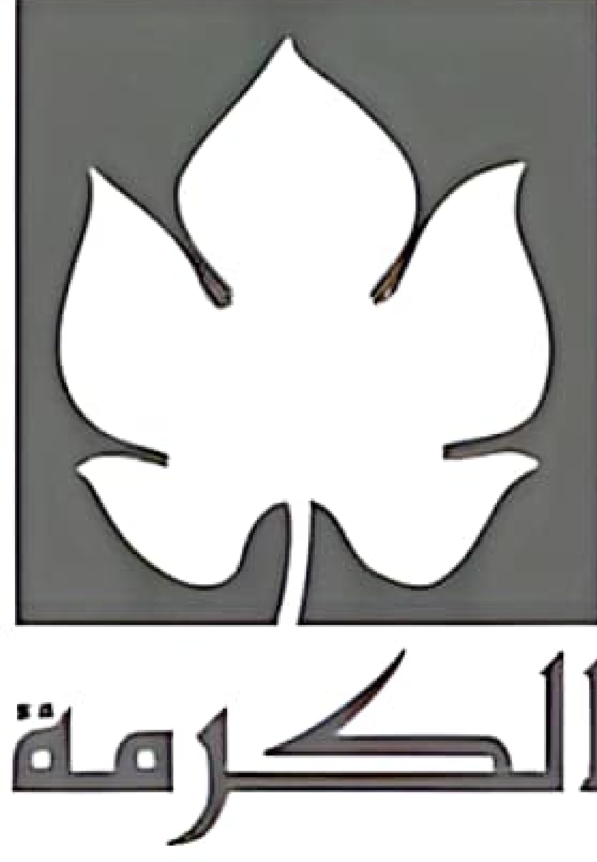


ميرنا المهدي

دليل جدتي لقتل الأوغاد

رواية





alkarmabooks.com
facebook.com/alkarmabooks
twitter.com/alkarmabooks
instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى ٢٠٢٣

المهدي، ميرنا.
دليل جدتي في قتل الأوغاد: رواية / ميرنا المهدي - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٣.
٢٤٨ ص؛ ٢٠ سم.
تدمك: 9789778648065
١- القصص العربية.
أ - العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٩٠٢٦ / ٢٠٢٢

٢ ٤ ٦ ٨ ١٠ ٩ ٧ ٥ ٣ ١

تصميم الغلاف: أحمد عاطف مجاهد



تمَ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أشرف غالب.



روايات ميرنا المهدي

الصادرة عن دار الكرمة

قضية ست الحسن - تحقيقات نوح الألفي ١

قضية لوز مر - تحقيقات نوح الألفي ٢

دليل جدتي لقتل الأوغاد

إهداء

إلى الذين ائتمنوني على قصصهم وشاركوني تجاربهم بصدق، ولكن امتنعوا عن أن يشاركوا العالم أسماءهم وحقيقة ما عانوه، أكتب هذه الرواية من أجلكم، يا أشجع مَن عرفت، عسى أن نُحدث فرقًا.

يؤكد خبراء علم النفس الحديثأن الإنسان يمر بسبع مراحل نفسية قبل أن يتمكن منالتغلب على حزنه.

المرحلة الأولى

الصدمة

١

عيسى

(ليلة الجريمة)

حين كنت في الخامسة من عمري، صدمتني بتول بمعلومة أن جدتنا قتلت زوجها الثاني.

همست إليَّ حينها بنبرة جادة:

- في عام ١٩٧٥، الجدة نصرة سممت طعام زوجها. إياك أن تزعجها وإلا سممتك مثله.

حتى الآن، أجهل إن كانت بتول مارست دور الأخت البكرية التي تحترف إخافة أصغر أخويها، أم أن جدتي نصرة قتلت زوجها الثاني بالفعل!

لم أجرؤ على مواجهة جدتي، بالطبع. اكتفيت وقتها بسؤال أبي عن الأمر، فصاح فيَّ:

- أمي كانت بطلة حرب! إياك وتكرار تلك الترهات يا عيسى، فتى أحمق!

أذعنت لأمره كالعادة، ولم أكرر أمامه ما قالته بتول، بل إنني نسيت الموضوع كليًّا، حتى صدمتني أحداث اليوم الذي كانت خاتمته لعينة كبدايته.

وقفت خلف جدتي وهي تفتح باب غرفة الاستوديو العازل للصوت، فوجدت أمامي جثة مسجاة على ظهرها. بالطبع، لم أشك في غير الجدة نصرة.

ليس فقط لأنها الوحيدة من عائلتنا التي تملك سلاحًا تحترف استعماله منذ أيام شبابها، بل لأنها فور أن رأت الجثة، ربتت على ظهري وقابلت نظراتي المرتابة بابتسامة حنون وكأنها تقول لي: «جثة هذا الوغد هي هدية تفوقك بالثانوية العامة، اسعَد يا عيسى!»».

لا أنكر أن رؤيتي له وهو ميت كانت أمرًا مُرضيًا للغاية، إلا أنني لست سعيدًا.

لقد أخبرتهم قبل ذهابنا إلى قسم قصر النيل، إن كانوا حقًّا سيقتلونه الليلة، فلا يجوز أن يطلق غيري عليه الرصاص، ولكن يبدو أنهم استغلوا غيابي ليمارسوا العادة الأقرب إلى قلوبهم؛ تجاهل رغباتي.

كانت غرفة الاستوديو في حالة من الفوضى.

ليس وكأنها كانت مرتبة قبل مقتله، ولكن فاحت منها رائحة الدماء، وسقطت ساعة الحائط على الأرض بجوار حاسوبه المحمول المحطم، وانقلب الكرسي على الطاولة أسفل الزجاج العازل للصوت، وتمزقت بطانة الحوائط القديمة.

يبدو أن الأحمق حاول كسر الزجاج ليهرب من الغرفة التي حبسناه فيها، ثم مزق بطانة الحوائط الحمراء، كي يضعف قدرتها على عزل الصوت، فيسمع الجيران صراخه

ويأتوا لنجدته.

كل محاولاته للهرب باءت بالفشل تمامًا، كما فشل في كل شيء آخر جربه في حياته البائسة.

نظرت إلى جثته.

كان عاريًا، وشعره مبتلًّا، والكدمات الزرقاء تفترش بدنه، ولكن استجد عليه ثقب في رأسه موضع الرصاصة التي صرعته.

وقع بصري على خط الدم الذي سال من رأسه، فتذكرتُ أبشع منظر شَهِدتُه في حياتي منذ ثلاثة أشهر.

اهتاجت أمعائي مجددًا، وشعرت بفوران داخلي، وكأن كل عصارتها صعدت إلى حلقي.

فقدت السيطرة على جسدي وتقيأت سوائلَ معدتي الخاوية عند عتبة باب الغرفة.

ربتت جدتي على كتفي، وظلت تسمي باسم الله وتكبر في أذني.

وددت أن أسألها إن كانت هي مَن قتلته، ولكن منعني من ذلك وجود ضابط مباحث من قسم قصر النيل.

كان قد دخل معنا إلى الغرفة بنية معاينة مسرح الجريمة، إلا أنه صُدم أكثر منا حين أدرك أنه لم يعد هنا لإثبات حالة فحسب، لقد أصبح يحقق في جريمة قتل مع سبق الإصرار.

كان الضابط الطويل صاحب الاسم العجيب، منشغلًا

بمحادثة زميله على الهاتف ليطلب منه الحضور إلى الشقة ومعه رجال المعمل الجنائي، ولكن حين انتبه لوهني وإعيائي، أنهى المكالمة واطمأن عليَّ، ثم اقترح أن نخرج من الغرفة حتى لا نلوث مسرح الجريمة.

جلست على الأريكة في الصالة تجاورني جدتي.

أعطاني الضابط منديلًا تفوح منه رائحة الكاكاو، وانتظرني حتى أنظم أنفاسي وأتخلص من رعشة يدي، وأمسح دموع الوهن التي فرت مني، ثم قال:

- لقد عانيتَ اليوم بما يكفي يا بطل! لا أريد أن أضغط عليك، ولكن... هل أنت متأكد من أنكم حين حبستموه في هذه الغرفة كان لا يزال حيًّا؟

استشعرت شكًّا في نبرته واتهامًا في نظراته إليَّ.

هكذا، أدركت أنني خلال شهرين فقط تحولت من مراهق يصارع الاكتئاب إلى مشتبه به في جريمة قتل.

المرحلة الثانية

الاكتئاب

٢

عيسى

(قبل الجريمة بشهر)

جاهدت لأربع ساعات حتى أقنع عقلي بأن يعطي أطرافي إشارة بالنهوض من الفراش.

لا يجوز أن أتأخر على ميعادي الأول.

بدت غرفتي المظلمة كبطن حوت أسود وحيد، مهما طال بقائي بداخله، سينتهي أمري عاجلًا أم آجلًا بأن يهضم بدني الضعيف بعصارة بطنه المهلِكة حتى أفنى من الوجود.

هذا هو الاسم الذي اخترته لاكتئابي؛ الحوت الأسود.

أعتقد أن الأديب الصغير الذي بداخلي هو الذي دفعني إلى تسميته. وددت أن أتبع خُطى ج. ك. رولينج التي اخترعت كائنًا أسطوريًّا اسمه «ديمنتور»، ليكون رمزًا في رواياتها لفترة اكتئابها الحاد.

فكرت بالأمس وأنا أحملق إلى السقف بصمت تام، أن أكتب قصة قصيرة بعنوان: «الحوت الأسود: اكتئاب مراهق»، أفرغ فيها مشاعري وأسهب في الحديث عن

صراعي مع قتامة وضراوة الاكتئاب، ولكني فشلت في ترك السرير حتى أحضر دفترًا وقلمًا من على المكتب.

السرير، أصبح مؤخرًا مثله مثل كثبان رمال متحركة، كلما عافرت للخروج منها سحبتني إلى أعماقها أكثر فأكثر.

الكثير من التشبيهات الأدبية ولكن النتيجة واحدة، أنا منهك القوى ولا أقدر على تسجيل تلك الصور البلاغية في دفتري، وعلى الأغلب ستتوه في حنايا عقلي دون أن أحفظها.

بدأت روتيني اليومي. أزحف وألهث في طريقي من الفراش إلى حمام غرفتي.

كل عضلة ببدني ترهقني وأنا أصلي فروضي.

أسمع طرقعة عظامي وأنا أركع، ثم أجهش بالبكاء مع كل سجود.

يطول الصمت المحيط بي قبل أن يستيقظ أول فرد من أسرتي ويخرج من غرفته. في تلك الأثناء تبدأ فوضى الأصوات التي تدور في رأسي.

أنت ضعيف النفس يا عيسى، أنت هش الإرادة، أنت عديم القيمة. لو متَّ الآن، لن يفتقدك العالَم، العالم لا يبالي بمراهق في السابعة عشرة من عمره.

أتبكي مجددًا يا عيسى؟! لا تستحق كلمة ذكر المكتوبة ببطاقتك الشخصية.

تداخلت الأصوات الضارية بداخلي، حتى لم أعد أعرف

أيها صوت الاكتئاب وأيها صوت نفسي الحق!

هل هذه أفكار الاكتئاب أم هي نظرتي الحقيقية إلى نفسي؟

منذ يومين، حاولت مقاومة تلك الأفكار المؤذية التي تصحبها رغبة ملحة في إلقاء نفسي من النافذة.

تراودني تلك الفكرة مرة كل ثلاثة أيام أو أكثر، لكنها مجرد خاطرة عابرة، لم أحاول قَطُّ تنفيذها.

شغلت أغاني كايروكي، الكئيب منها فقط. أغانيهم المبهجة المحملة بالوعود والآمال لم تعد تليق بظلمة غرفتي وكآبة نفسيتي وآلام روحي.

الأغاني المفرحة لم تعد تشبهني.

تركت صوت الأغاني الحزينة عاليًا، عسى أن يغطي على صوت أفكاري الشرسة.

استجديت ذاتي بأن تذكرني بأي نجاح حققته في أي لحظة حتى أستعيد قيمتي وثقتي، ولكن بلا فائدة.

حتى نفسي، تخلت عني!

أعرف دائي ودوائي، واليوم سآخذ أولى خطوات محاولاتي الجادة في تمزيق بطن الحوت الأسود والخروج منه، ولكن المشكلة أنك حين تعتاد الوَحدة، تستلذها.

لا أدري، حتى لو خرجت من بطنه وسبحت من أعماق المحيط الباردة المظلمة، ووصلت إلى السطح حيث النور والدفء، هل سأستحسن الحياة خارج فقاعتي؟

أليست قسوة المعيشة هي التي دفعتني إلى الانعزال من البداية حتى استحوذ الاكتئاب عليَّ؟

أعلم علم اليقين أنني مرهق وأكره وضعي الحالي، ولكنني لم أحب وضعي السابق أيضًا.

لا أريد أن أحسِّن نفسيتي فحسب، أريد أن أحسِّن المجتمع كله.

تحسين المجتمع... هذا الوهم هو سبب انتكاستي من الأساس.

حسنًا، ولكن إن تخليت عما أريده، فَمَن أكون؟ مجرد شخص يتأقلم مع قبح العالم حتى لا يصاب بالاكتئاب؟

أريد أن أحدِث فرقًا. هذا هدفي، وأنا أسير ما أريد.

* * *

لم أجد مكتبًا خشبيًّا أنيقًا ضخمًا، ولا مكتبة مراجع عملاقة، ولا حتى شهادات أجنبية معلقة على الحائط.

كانت الغرفة كلها باللون الأزرق السماوي من السقف وحتى الأرضية، فيها كرسيان من نوع ليزي بوي وبضعة مقاعد بين باج ملونة وبساط زاهي الألوان، ثم ثلاجة صغيرة تجاورها طاولة عليها ماكينة الإسبريسو وبضعة مقرمشات وجهاز استريو.

كان هذا لقائي الأول مع ماجد ملاك.

كان رجلًا في منتصف الأربعينيات. يربط شعره الفضي كذيل حصان، ويرتدي قميصًا قطنيًّا لشخصية بطوط

وشرابًا عليه رسومات لشطيرة برجر.

كانت هيئته شبابية وعصرية ولا تتماشى مع الصورة النمطية التي رسمتها له في مخيلتي.

استقبلني عند الباب بابتسامة مرحبة، وقال:

- لن تجد شازلونج. لديَّ ليزي بوي ومقعد بين باج، أيهما تفضل؟

- الليزي بوي.

اتجهت نحو المقعد في صمت، بينما سألني ماجد وهو في طريقه إلى الثلاجة:

- عصيرًا أم مياهًا غازية؟

- لا أريد سوى الماء.

- ماذا عن الوجبات الخفيفة؟ بسكويت؟ فاكهة؟ رقائق بطاطس؟

- لا أشعر بالجوع. شكرًا.

- أتفضل الاستماع إلى الموسيقى؟

- نعم، كايروكي.

- أستلطف موسيقاهم، أي أغنية تحب؟

كنت سأطلب منه تشغيل أغنية «أنا نجم»، ثم تذكرت أنها تبكيني حد الانهيار.

لن أبكي أمامه.

- آسف، غيرت رأيي، أفضِّل أن نتحدث دون موسيقى.

- لا داعي للأسف.

جلس على الكرسي المقابل لي، وأعطاني زجاجة صغيرة من المياه، تجرعت ربعها. ليس بسبب العطش، بل لأتشبث بأطول مدة ممكنة من الصمت.

ارتخى في مقعده وثنى ساقًا أسفل الأخرى. لم يكن يمسك مسجلًا ولا دفترًا لتسجيل الملاحظات، بل بسط كفيه فوق فخذيه وظل ينظر إليَّ بابتسامة تخلو من التفحيص والتدقيق المقلق حتى سألني:

- هل أتيتَ إلى هنا بإرادتك يا عيسى؟

- نعم، أجبرت أهلي على الموافقة. أنا في حاجة إلى المساعدة.

- أهلك عارضوا رغبتك في المجيء؟

- ليس كلهم، أبي لا يرى سببًا حقيقيًّا كي أستمر في الحزن والانعزال عن المجتمع لشهر كامل دون نوم أو طعام، أعني، بالقليل من كليهما. لست مضربًا عن الطعام، أنا فقط... لم أعد أملك شهية للأكل. لو لم تتدخل جدتي وبتول وتتصديا لتعنت أبي لما تمكنت من المجيء.

- بتول؟

- أختي البكرية. لديَّ شقيقتان، بتول ومريم. مريم عرفت اليوم أنني هنا، شعرت بالذنب لأنها تقضي شهر العسل مع يحيو بينما أنا أعاني هنا، هي أكثر شخص

حساس بيننا. تجلد ذاتها كثيرًا، ورثت هذا عن أمي، تخافان حديث الناس وظنهم فيهما.

ـ ماذا عنك؟ ألا تخاف حديث الناس؟

ـ لا أدري، لم أعد أفهم موقفي تجاه المجتمع بعد ما حدث.

ـ ماذا حدث؟

ـ هناك واقعة أصابتني باكتئاب جعلني آتي إلى عيادتك يا دكتور ماجد.

ـ لا ترهق نفسك بالألقاب. أنا ماجد ملاك وأنت عيسى شرف الدين، اتفقنا؟

ـ حسنًا.

ـ ما الذي دفعك إلى الاعتقاد بأنك مصاب باكتئاب؟

ـ أجريت اختبارًا مجانيًّا على الإنترنت، وكانت النتيجة أنني مكتئب وفي حاجة إلى دعم نفسي. بتول ساعدتني على البحث عن أخصائي نفسي مناسب لعمري. لكن في الواقع، مايكل صديقي هو الذي رشحك، أثق به.

ـ حسنًا، اسمح لي أن أعود إلى الوراء قليلًا. ذكرتَ واقعة أصابتك بالاكتئاب، هل تشعر بأنك مستعد للحديث عنها الآن؟

ـ نعم، نعم. هذا سبب قدومي. أود الحديث مع مختص، أنا في حاجة إلى التكلم عما جرى مع فرح جبران، لا شك أنك سمعت عن تلك الواقعة.

- لكلٍّ منا نسخة مختلفة من كل حكاية، أفضِّل أن أسمع نسختك.

- حسنًا. أنا وفرح كنّا بالصف نفسه منذ الروضة، كان بيننا هذا التنافس الدراسي؛ مَن سيكون أمين الفصل، من سيكون الأول على دفعته، من سيكسب مسابقة الكتابة الإبداعية لهذا العام. كنّا نمقت بعضنا، نستفز بعضنا، اثنان يتنافسان بنزاهة من أجل التميز العلمي، وكان الجميع يترقب أينا سيحصل على أعلى درجات في الثانوية العامة. ليلة امتحان اللغة العربية، نمت مبكرًا حتى أحصل على ثماني ساعات كاملة من النوم. في الصباح، وجدت رسالة على الواتس آب من رقم غريب تحتوي على صور فقط. توقعت أن أستاذي أرسل إليَّ بعض الملاحظات لمراجعتها من رقم غريب، فسمحت للصور بالتحميل، وكانت النتيجة أنها صور لفرح وهي...

وجدت مشقة في نطق الكلمة، شعرت بأنني أغتابها أو أخوض في سمعتها، فأخذت أهز قدمَي وأغرس أصابعي في جلد المقعد الوثير، حتى قال ماجد:

- لا بأس، أعرف أي نوعية من الصور تقصد.

- لقد صدمت. لم أرَ فرح يومًا تحادث أي صبي أو تتعامل بطريقة خليعة معنا، فلم أتوقع قَطُّ أن أرى لها صورًا، صورًا من هذه النوعية... كنت متوترًا بما يكفي بسبب الاختبار، فلم أفعل شيئًا سوى أنني حظرت صاحب الرقم الغريب وخرجت من غرفتي، ولكني وجدت أمي تقف في المطبخ ممسكة بهاتفها وهي مشدوهة

وتضع يدها على فمها. فهمت على الفور أن الصور وصلت إليها هي أيضًا. بمجرد أن خطوت داخل المدرسة سمعت همسات الجميع؛ الطلاب، المعلمين، أولياء الأمور عند بوابة المدرسة. الكل يتحدث عن صور فرح. تملصت من التورط في الحديث عن الأمر، لدينا امتحان مادة دسمة، يجب أن أراجع كل الملاحظات ثم أصب جلَّ انتباهي على ورقة الأسئلة، ولكن دخول فرح إلى حوش المدرسة جعلني أنسى المراجعة. صبغت حمرة البكاء عينيها ورأيت على وجهها آثار الصفعات. أحترف التعرف على آثار الصفع. لأول مرة أراها خائفة تتلفت حولها. فرح كانت شديدة الغرور، تضرب الأرض بكعبها وترفع رأسها بشموخ. هذا الصباح، لم ترفع عينيها عن الأرض، ولكن ما كادت تتوغل في الحوش في طريقها إلى قاعة الامتحانات حتى مرت بجوار زميل قذر صفع مؤخرتها ثم ناداها بـ«العاهرة». فعل هذا أمامنا جميعًا.

- كيف كان رد فعل المدرسين؟

- صاح فيه مدرس الكيمياء وأمره بالتوجه إلى قاعة الامتحان فحسب. ولكن فرح انهارت، ألقت أوراقها وكتبها أرضًا وخرجت من المدرسة تبكي وأنا...

شعرت بمرارة في حلقي، وطافت الدموع على سطح مقلتي، ولكنها لم تنهمر على خدي بعد.

- يمكنك أن تبكي.

- لا أريد... أنا بخير. أنزعج كلما تذكرت أنني لم أقل

لها شيئًا. تركتها تتغيب عن الامتحان. صدقني، لم أفعل ذلك لأشعر بالتفوق العلمي عليها، عجزت عن أن أكون إيجابيًّا. بتول تقول إننا لا نملك جميعًا سرعة البديهة أو فطرة التصرف السليم تحت الصدمة، ولكني عوضت هذا الموقف. نصحتني بتول أن أتصل بفرح، بل وحفظتني ماذا يجب أن أقول لها كي أدعمها نفسيًّا، ولكن يبدو أنها غيرت رقمها. بحثت بتول عن عنوانها واتجهت معي لزيارتها ولنصحها بأخذ إجراء قانوني ضد مَن سرب هذه الصور، ولكن لم يُفتح لنا الباب. ربما تركت بيتها، ربما لم ترد أن ترى أحدًا. لا أعرف. استمر اختفاؤها حتى آخر يوم بالامتحانات. في الليلة نفسها كان زواج شقيقتي مريم بجارنا يحيى. انشغلت بزفافها وسفرها ثم تحمست للتخطيط لإجازة الصيف بعد معركة امتحانات الثانوية. في اليوم الأول من الإجازة، اجتمع الفصل كله فوق سطح بيت أحد أصدقائنا، احتفالًا بنهاية الامتحانات. ما زالت فرح حديث الفصل. كنت أراهم يعلقون على الصور بأفظع التعليقات الجنسية.

- ما رأيك فيما قالوا؟

- رأيي أنهم حفنة من الخنازير الضارية على رأي بتول. كانوا يتحدثون وكأنها عارضة بمجلة بلاي بوي، وليست زميلة معنا نعرفها منذ أن كانت بالرابعة من عمرها. أعلم أنني محظوظ لأنني تربيت في منزل كله نساء لذلك أفهم مشاعرهن وحقوقهن، ولكن هناك فرقًا بين أن تكون نسويًّا مثقفًا، وأن تكون لديك أدنى معايير الإنسانية. لقد

نهشوا فرح بكلامهم، وقال أحدهم إنه عثر على رقم هاتفها الجديد، وطلب منها أن تحضر إلى الحفل بقميص نوم مثل الذي ارتدته في إحدى صورها المسربة.

شعرت بالاختناق، فشربت المزيد من الماء، ثم أخذت نَفسًا عميقًا وأردفت:

- لبت فرح الدعوة وأتت إلى الحفل ترتدي سترة بيضاء بسحاب طولي وغطاء رأس. كانت في حالة يرثى لها. بمجرد أن صعدت إلى السطح توقف الجميع عما كانوا يفعلونه وحدقوا إليها. كان شعرها محلوقًا كليًّا ولديها كدمات في وجهها، وعيناها تلمعان بالدموع. اقتربت من السور حيث كنت أقف وصعدت فوقه حتى يراها الجميع، ثم قالت لنا هذه الصور ليست صوري، جميعكم تخليتم عني، لن أسامحكم أبدًا، ثم...

سالت دموعي فمسحتها سريعًا بظهر يدي، وأسرعت بإتمام القصة وكأنني في سباق لإنهاء حديثي قبل أن أستسلم للبكاء.

- ابتسمت لي. لا أعرف لماذا. لم تبتسم لي من قبل! ثم قفزتْ. كانت قريبة مني للغاية فتمكنت من الإمساك بها من غطاء رأس سترتها. كانت هناك لافتة بارزة ضخمة لمكتب محاماة أسفل السور، مما عرقل سقوطها مباشرة. أخذت أصيح فيها لا تتحركي، لقد أمسكت بكِ، سأنقذك. ولكنها وبدون لحظة من التفكير فتحت سحابها حتى تفر من الشيء الوحيد الذي يربطها بالحياة. سقطت على ارتفاع أربعة عشر طابقًا. ركضت حيث المصعد، يجب

أن أنزل لأغطيها، لا يجوز أن يراها الناس في وضع كهذا. وقفت عند جثتها. شُجّ رأسها وتناثرت أجزاء من مخها فوق بركة من الدم على الرصيف. غطيتها سريعًا بسترتها وبقميصي ثم جلست القرفصاء بجوارها، فقط أحدق إليها. لم أرد ذلك، لم أرد أن أطيل النظر إليها ولكني عجزت عن النظر بعيدًا. لا أعلم، لا أعلم لماذا بقيت أشاهدها حتى أتت الشرطة والإسعاف! ربما لأنني خفت من أن يصورها أحدهم وينشر هذا المشهد فيراه أهلها. ولكن خلال ساعات قليلة اكتشفت أنني فشلت في ذلك. يبدو أن في الفترة من نزولي من السطح وحتى وصولي إليها تمكن أحد المارة من تصويرها. ما الدافع وراء تصوير جثة صبية في السابعة عشرة من عمرها غارقة في دمها؟ توقعت أن الجميع سيسبون مَن نشر الصورة على مواقع التواصل الاجتماعي ولكنهم كانوا يسألونه، لماذا وضعتَ لاصقًا لقلب أحمر على الصورة عند منطقة ثديها؟ هل كانت عارية؟ لماذا خلعت ثيابها قبل أن تنتحر؟ هل وجدها أبوها في وضع مخلٍّ فقفزت من النافذة على الفور؟ انقسمت التعليقات بين المنادين بعدم جواز الترحم على المراهقة المنتحرة، وبين سب أهلها وخريجي مدارس اللغات الأجنبية والتسيب الذي تعيشه تلك الطبقة، حتى قادهم بُعدهم عن الله إلى الانتحار عرايا، فيبعثوا على هذه الصورة أمام الخلق أجمعين. رددتُ على كل التعليقات. سببتهم أولًا ثم فسرت لهم أنها لم تنتحر عارية، لقد انخلعت عنها سترتها لأنني جذبتها منها وحاولت إنقاذها من الموت. كانت إجابة أحدهم، وكيف لتلك العاهرة ألا ترتدي

فانلة أسفل سترتها حتى تستر بدنها في لحظة الموت!

ضحكت ضحكة عصبية لا تليق بقتامة الموقف، ثم أكملت الإسهاب في الحديث:

- لم يُقم لها أهلها عزاء. ولكن نشر أبوها على الفيسبوك تقرير الطب الشرعي الذي يفيد بأن ابنته عذراء لم يُفَض غشاء بكارتها. وبعدها ببضعة أيام، نشر تقرير المعمل الجنائي الذي يفيد بأن صورها الإباحية التي سربت كانت مفبركة، وأن الفاعل هو جارهم الدكتور مصطفى الذي أراد أن يقيم معها علاقة جنسية، وحين صفعته وسبته وبصقت في وجهه أقسم أن يجعلها تدفع الثمن غاليًا وأن يشوه سمعتها. شاركت المنشور الخاص بخبر صورها المفبركة حتى يشهد الجميع على براءتها، فوجدت زميلًا معي بالفصل يراسلني بشكل خاص ويقول إنه يعرف أن فرح بريئة. سألته كيف عرفتَ والشرطة نفسها لم تصرح بالأمر إلا منذ بضع ساعات؟ قال إن ليلة انتحارها، فر ثديها الأيسر من صدريتها بسبب الارتفاع الذي سقطت منه، فاكتشف أن صدرها صغير، وأن لديها شامة سوداء بارزة فوق حلمتها، في حين أن الصور العارية المسربة لها كان يبدو فيها ثديها كبيرًا جدًّا ولا توجد عليه أي شامات. سألته أهذا ما فعلته حين رأيت جثة زميلتك المنتحرة؟ لقد تفسخ لحمها، وعظامها المكسورة اخترقت جلدها، ومخها تناثر على الأسفلت، بينما أنت تتأمل أدق تفاصيل ثديها الذي كشفه الموت؟! أجابني، كم مرة يتاح للشاب منا أن يرى ثديًا عاريًا على أرض الواقع، ألست رجلًا يا عيسى!

فرح كانت الفتاة الأنجب والألمع في المدرسة برمتها. كانت تجيد ثلاث لغات، وتقرأ لديكارت ولجان جاك روسو، وتحترف لعب التنس، وتطمح إلى أن تصير محامية دولية مختصة في شؤون اللاجئين. الآن، لا نذكر عنها سوى أن لديها شامة بارزة فوق حلمة ثديها الأيسر الصغير.

لم أعد أحتمل المزيد من الكبت، أجهشت بالبكاء.

قرَّب ماجد علبة المناديل نحوي فسحبت منديلًا، ولكن كلما مسحت دموعي فاضت أكثر.

أخذت أتكلم وأنا أبكي، ولا أعرف إن كان فهم شيئًا مما أنوح به!

- أنا مَن جذبها من سترتها وكشف عورتها أمام الجميع. لم أعبر عن فاجعتي وقتها، لم أبكِ، لم أشكُ، لم أتحدث في الأمر. بتول ومريم وجدتي حاولن أن يجعلنني أتكلم وأعبر عن مشاعري، ولكني لم أقدر على ذلك. قلت لعائلتي إنني بخير. تظاهرت بالاستمرار في حياتي كما كانت حتى رأيت فيديو لفتاة تُذبح أمام جامعتها.

- نيرة أشرف؟

- نعم، بمجرد أن رأيتها تنازع الموت ودمها يفيض والجميع يشاهد ذبحها دون تدخل، ثم رأيت التعليقات نفسها على الفيديو؛ لا إله إلا الله، انظر كيف ستبعث إلى ربنا وهي متبرجة لا ترتدي الحجاب! أهذا ما يشغل بالكم؟ طالبة جامعية قتلت في وضح النهار في شارع مزدحم وسط أبناء وطنها، وأنتم تأسفون لأنها ذبحت دون حجاب؟! عادت

إليَّ تفاصيل انتحار فرح وانتابتني نوبة هلع. فقدت أنفاسي وارتعدت أوصالي وانتفض بدني كله وأخذت أصيح حتى بُح صوتي. أمي وجدتي قرأتا عليَّ القرآن وبتول شجعتني على تفريغ مشاعري، ومن وقتها لمِ أعد... لم أعد قادرًا على منع نفسي من البكاء، لم أعد قادرًا على ترك الفراش والخروج من الغرفة. أغلقت كل حساباتي على مواقع التواصل الاجتماعي. أود أن أعتزل المجتمع، بل أود أن أعتزل الحياة كلها. ما حدث لفرح ونيرة قد يحدث لشقيقتَي؛ مريم لا ترتدي الحجاب، هل هذا ما سيقوله الناس عنها إذا ذبحت في الشارع؟ هل سيخلقون مبررات لقاتلها لمجرد أنها أنثى متبرجة؟ حسنًا، ماذا لو انتحرت أنا؟! هل سيبحث الناس عن صوري ويقولون إنه فتى يطيل شعره وينشر الأغاني والشعر واقتباسات من روايات الغرب الكافر، لقد كان بعيدًا عن ربه ولا يجوز الترحم عليه؟ هل سيضطر أبواي إلى التبرير والقَسم إنني كنت على الخلق بدلًا من أن يجدا يد المجتمع تحنو عليهما وتؤازرهما وتعزيهما في فقدهما؟ أهذا مجتمع إنساني أم حظيرة وحل؟

زاد بكائي، فتوقفت عن الحديث.

نظرت إلى الأرض وعجزت عن تهدئة مشاعري ومنع ذاتي من البكاء.

لم يتحرك ماجد ولم أسمع أنفاسه، حتى إنني شعرت للحظة بأنه خرج من الغرفة حتى أتم بكائي.

لا أعلم كم مِر من الوقت، ولكن انتهى مخزوني من الدموع ففرغتَ من البكاء.

مسحت أنفي وعينَي، ثم قلت:

- آسف.

- لماذا؟

- لأنني أطلت البكاء.

- أهذا أمر يستحق الاعتذار؟

- نعم، إنه مضيعة لوقتك. البكاء لن يغير شيئًا، إنه علامة الضعف وقلة الحيلة.

- بل هو حق الإنسان، أقالوا لك إنه حق حصري للنساء؟

- أجل. دخل والدي غرفتي لأنه سمع أنيني، فسألني إن كنت أود أن يشتري لي صدرية حمراء حتى أرتديها في أثناء بكائي.

ضحكت. كنت أسرد الموقف على سبيل الدعابة، ولكن ماجد لم يبتسم حتى!

- لو كان البكاء حكرًا على النساء يا عيسى لجعل الله الدموع مثل المبايض والأرحام، تخص أجساد الإناث وحدهن. كلنا نملك قنوات دمعية حتى نسرب منها ما يجثم على صدورنا، إنها رحمة الرب علينا.

هزت رأسي تأييدًا لفكرته.

شربت ما بقي من زجاجة الماء، فنهض ليحضر لي المزيد، ثم عاد للجلوس أمامي قائلًا بابتسامة حكيمة:

- بماذا تشعر الآن؟

- بالإرهاق، بالخدر، بالظلم. الظلم هو الشعور المهيمن عليَّ مؤخرًا.

- فلنتحدث عن هذا الشعور.

- إنه خانق، ولكنه يسيطر عليَّ من قبل حتى انتحار فرح. توجه إليَّ بعض الانتقادات وأضطر إلى التعامل معها على سبيل المزاح، حتى لا أبدو رقيقًا وحساسًا أمام أقراني.

- أي نوع من الانتقادات؟

- شَعري... في كل مرة يعود أبي من دبي يدعوني بـ«المخنث»، لأنني أطيله حتى منكبَي. أجد صعوبة في فهم الرابط بين فحولتي وطول شعري. بحثت على الإنترنت عن حكم إطالة الشعر للرجل، ووجدت أن ذلك مباح، وأن شعر النبي كان يصل حتى منكبيه في أربع غدائر. فقرأت ذلك على أبي. غضب وحلق شعري من المنتصف حتى يجبرني على حلق رأسي كله.

- وما كان رد فعلك؟

- لا شيء، شعرت بالغضب بالطبع، ولكنني لم أتخطَّ حدود الاحترام معه. أفهم أنه من جيل مختلف اعتاد الطاعة دون تفكير، ولكنني أكره رغبة الجميع في إجباري على كبت أفكاري لخاطر التمسك بصورة بائدة عن الرجولة. الألوان التي يجب أن يلبسها الرجل، طول شعره، نبرة صوته، أفكاره. كثيرًا ما أكتب منشورات تخص حقوق المرأة فأجد شخصًا غريبًا يسبني وينعتني بـ«النسوي

الهائج» الذي يناصر النساء من أجل مضاجعتهن فحسب! هذا ظلم! أعجز عن إيجاد متنفس أكون فيه على طبيعتي دون الحاجة إلى التأكيد على أنني ذكر ورجل حق.

- هذا مربط الفرس. ننتظر من المجتمع أن يهبنا حريتنا، ولكن العكس صحيح. أنت المطالب بتوفير حريتك لنفسك.

- لا أفهم مقصدك.

- فلنقل إنك تضع سماعاتك في أذنيك وتسمع أغنيتك المفضلة، إذا قلت لك إن تلك الأغنية لا يسمعها سوى عديمي الرجولة، هل هذا يعني بالتبعية أنك مضطر إلى الإذعان لرأيي والتوقف عن سماع أغنيتك المفضلة؟

- لا، لا أظن ذلك.

- الحر الحق ليس في حاجة إلى تأييد الجميع له. الحر يمضي في طريقه وينتبه لأفعاله ويتدبر تصرفاته، حتى لا يؤذي نفسه وغيره ويخالف مبادئه، لقد سيطرت علينا الحاجة الماسة إلى جمع الإعجابات والتعليقات الداعمة بسبب إدمان تطبيقات التواصل الاجتماعي، ولكن العالم الافتراضي لا يمثل الحقيقة... لستَ في حاجة إلى مئات التأييدات لتقوم بما يمليه عليك ضميرك. ألم تشعر بهذا الفرق منذ أن أغلقت حساباتك؟

- بلى، صرت بمنأى عن الأفكار السامة.

- تهانيَّ الحارة! أنت في طريقك للتعافي من سُميات العصر الرقمي. كيف تتخيل مسار جلساتنا المقبلة؟

- ستكتب لي دواء حتى أصير أكثر بهجة و...

- لا توجد أقراص للبهجة يا عيسى، ولكن إليك الأمر، بين كل الفتيان الذين مروا على هذه العيادة، أنت أكثرهم وعيًا وشجاعة.

- أنا؟ ولكنني لم أفعل شيئًا!

- بل فعلتَ الكثير، عادة لا ينفتح الشباب على الحديث من الجلسة الأولى، أنت أحرزت تقدمًا يتطلب شهورًا من التعافي، ولهذا، إليك ما سنفعله؛ في نهاية كل جلسة سأكلفك بمهمة يجب أن تنفذها قبل لقائنا المقبل، ما رأيك؟

- حسنًا، إن كان هذا سيفيدني.

- أنت مَن سيحدد ذلك. مهمة هذه الجلسة هي الخروج مع صديق عزيز لتناول الوجبة الأقرب إلى قلبك. ستكتب لي وصفًا تفصيليًّا عن طعم ما ذقته، وديكور المكان الذي أكلتما فيه، والأصوات التي سمعتها في أثناء ذلك، وملمس كل ما وقعت يداك عليه، والمشاعر التي اجتاحتك قبل وفي أثناء وبعد هذه الوجبة.

- هل يجب أن أكتبها في إطار سردي أم أدوِّنها كمعلومات فردية أم...؟

- لك حرية الاختيار، المهم أن تأكل خارج المنزل برفقة شخص عنده القدرة على فتح شهيتك.

٣

مريم

(ليلة الجريمة)

لطالما كنت ابنة أبي المدللة.

بعكس حال أي ابن أوسط يهمله والداه، لأنهما يعتنيان بالكبير ويعطفان على الصغير، كنت أنا الابنة الأكثر تدليلًا بين أخوَي.

أبي كان يقول دائمًا: «أنا لم أنجب غير مريم!».

كانت جملة تثير غيرة بتول وعيسى، ولكنها كانت مستحقة، فلطالما كنت أكثرهما تهذيبًا وطاعة، لا أجادل ولا أناقش ولا أعترض، ولكن ما جزاء ابنتهما البارة الآن؟

طيلة طريق العودة من المشفى لم ينفك أبي عن لعن اليوم الذي وافق فيه على اختياري.

عاتبني ولامني على كل ما صار، وكأنني لم أَلُم نفسي بما يكفي.

- أنتِ السبب يا مريم! اختياراتكِ كلها خاطئة، لا أحد يدفع ثمن أخطائك تلك غيري!

غيرك؟!

أجهل كيف يؤمن أبي بأنه دفع ثمن خطئي، بينما لم يذق رشفة من الذل والمهانة اللذين تجرعتهما اليوم.

أيظن نفسه ضحية، لأنه تلقى ضربة من كعب بندقية جدتي على مؤخرة رأسه؟

يا لك من مسكين ومرهف الحس يا أبي! نتعايش مع ضغط حروب أعمالك دون شكوى، إلا أنك تعجز عن خوض معركة واحدة في سبيل كرامة أولادك.

يتظاهر بالبأس والشدة ويحدثنا عن قوة تحمُّل الرجال ليلًا ونهارًا، ثم ها هو ذا ينهار كليًّا في وقت لم نحتج فيه إلى شيء سوى دعمه وتماسكه.

لم ينهر والدي كالبشر الطبيعيين، لم يبكِ أو يصرخ داعيًا ربه أن يخفف عنه ابتلاءه، بل عبر عن صدمته بالسب والتعنيف وباتهامنا بأبشع التهم وكأننا ألد أعدائه.

يظن نفسه فحلًا لأنه يختار الغضب في وقت الضيق، أما لأن عيسى المسكين يبكي ويكتئب، فيعتبره مخنثًا.

كانت بتول تكرر هذا المصطلح كثيرًا، «الذكورية السامة»، لم أختبر حقيقته إلا اليوم، بعدما رأيت الوجه القبيح لأبي، بحجة أنه رجل شديد لا يعرف الميوعة.

تجاهلت سبابه لي ودعاءه علينا بالموت بأبشع الطرق، وأخذت أحك حاجبِي بعصبية وتوتر مفرط، حتى وصلنا إلى العمارة، فنزل من سيارتي وصفق بابها بعنف.

لو صفقت باب سيارته بالطريقة نفسها لشنقني في عمود النور المقابل للجراج!

لمحت سيارة بتول فاستنتجت أنها وجدتي وعيسى عادوا

من القسم.

دخلت إلى العمارة وما زلت أجد صعوبة في المشي بسلاسة، وأشعر بألم بغيض في عضلات فخذي وحوضي. توقف المصعد عند طابق شقة أبي، حيث من المفترض أن نلتقي جميعًا لنعرف مستجدات البلاغ، ولكني دخلت الشقة ولم أجد أحدًا.

كان والدي قد سبقني وجلس على المقعد يخلع حذاءه ويضغط على رأسه وهو يئن ألمًا.

ركض كلب بتول الصغير في اتجاهي وهو يهز ذيله، وينبح بحماس ويقفز صوبي بمحبة لا تنضب.

حملته وقبلت رأسه، بينما سبه أبي بسبب نباحه المزعج، ثم أخذ ينادي أمي.

- أين أنتِ يا صابرين الزفت؟!

اتجه صوب غرفة نومهما، وفي يده كيس الأدوية التي وصفها له الطبيب، فسألت نفسي بصوت مسموع:

- أين الجميع؟

- عسى أن يكون الله انتشل أرواحهم جميعًا.

- لِمَ الإصرار على القسوة يا أبي؟!

- قسوة؟ أصار لسانك لاذعًا مثل أخويكِ؟

- آسفة، لا أقصد. تعرف مقدار احترامي لك ولكن... ما فعلته معنا اليوم... رد فعلك تجاه ما صار... لقد صدمت فيك يا أبي، ظننت أنك ستشجعنا على...

- بل أنا الذي صدمت فيكم جميعًا وأولكم أمي، أنتم الذين جلبتم هذه المصيبة لأنفسكم. استغللتم غيابي وخالفتم أوامري. لماذا تصرون على تلويث سمعتي ولومي على كوارثكم؟ لقد سئمت منكم جميعًا. من اليوم، لم يعد لكم أب.

- وهل كان لدينا أب آنفًا؟ لطالما كانت بتول هي رجل البيت.

- يا نمرودة، يا قليلة الأدب! اجعلي بتول تصرف عليكم وتطعمكم وتكسوكم وتعلمكم. اجعلوها ترتحل وتشقى في الغربة لعقدين من الزمان حتى تصيروا مترفين هانئين.

- هل ترى أننا هانئون؟

- كلّا، أرى أنكم حفنة من الجاحدين، سأظل غاضبًا عليكم إلى يوم الدين! لعنة الله عليكم جميعًا!

أخذ يسبنا من الصالة وحتى غرفة نومه، ثم صفق الباب خلفه بعنف.

كنت سأتبعه حتى أكمل معه هذا الحديث. لست في حاجة إلى دعمه أو لتأييده على أي حال، فقد تكفلت جدتي وبتول بكل شيء، ولكن لان قلبي وشعرت بأنني جرحته بكلامي.

لقد عانيت اليوم بما يكفي، ووالداي راضيان عني، فماذا سيصيبني إذا خاصمني أبي إلى يوم الدين كما يقول؟

أنزلت الكلب أرضًا، وكنت متجهة إلى الطرقة المفضية

إلى غرفة والدَي، ولكني انتبهت لهاتفي المحمول الذي نسيته على السفرة من صدمة الموقف وضرورة إسراعي بأبي الجريح إلى أقرب مشفى.

وجدت عشرات المكالمات الفائتة من بتول. اتصلت بها فأجابتني هامسة:

ـ نحن في شقتك... وجدناه جثة هامدة. الشرطة هنا. اصعدي ولا تنطقي بشيء.

أغلقت الخط في وجهي دون سلام كعادتها.

لم أمهل نفسي حتى أتدارك الصدمة، أخذت مفاتيحي وركضت متأوهة على السلالم لثلاثة طوابق حيث شقتي.

فتحت الباب لأجد بتول جالسة في الصالة على الكرسي المقابل للأريكة التي تجلس عليها جدتي، ويجاورها أخي العزيز عيسى، آخر العنقود.

خفتت بشاشته وذبلت بهجة عينيه اللتين اختنقت فيهما الدموع، وتاهت وسامته النضرة بين الكدمات والجروح التي تملأ وجهه.

بدا كرجل في منتصف عمره فقد كل شيء، وليس مراهقًا سيتم عامه الثامن عشر بعد أسبوعين، وسيلتحق بالجامعة ويبدأ حياة مشرقة جديدة بعد شهرين.

كانت بتول تدخن سيجارتها، كالعادة، ومن اللسعة التي على طرف حجابها ومنظر المرمدة الممتلئة بأعواد السجائر، فهمت أن هذه ليست سيجارتها الأولى.

شتان الفرق بين اضطرابها وهي تطفئ سيجارتها، وبين هيبة جدتي نصرة وهي تنفث دخانها وتنظر أمامها بتأنٍّ وتدبر.

أشارت جدتي إليَّ بالاقتراب فور أن لمحتني، ثم همست إليَّ ورائحة النيكوتين البغيضة تفوح من أنفاسها:

ـ أنتِ لا تعرفين شيئًا! اذهبي إلى الغرفة، ابكي واندبي موته.

ـ هل قتلتِه حقًّا؟ ألم تذهبوا إلى...

ـ نفذي! ابكيه يا بُنيتي، ولا تنطقي بحرف بدون أمر مني.

نظرت إلى عيسى حبيبي، كان غائبًا عن الواقع.

لم يلتفت إليَّ منذ أن دخلت، أو ربما لم يود أن يرى وجهي من الأصل.

هل يلومني مثل أبي؟ هل صار لا يحتمل النظر إلى أخته مريومة التي تخبز له كعكه المفضل؟

لا عتاب عليه، من حقه أن يمقتني. ففعليًّا، أنا السبب، أنا المسؤولة عن هذه الفاجعة.

نظرت إلى بتول فهزت رأسها حتى أنفذ أمر جدتي.

في النهاية، ما من عليم بشؤون إخفاء الجرائم مثل الجدة نصرة، فقد مر على قتلها لزوجها سبعة وأربعون عامًا دون أن تلقي الشرطة القبض عليها.

لا أود أن أظلمها.

لست واثقة من صحة الأمر، ولكن هذا ما أخبرتني به بتول في طفولتنا، وتكرار تلك المعلومة لنفسي كان الطريقة الوحيدة التي قد أهدئ بها توتري، وأقنع ذاتي بأن جدتي ستخرجنا من هذا المأزق بسلام.

دخلت إلى غرفة الاستوديو، حيث كدت أزهق روحًا منذ بضع ساعات.

كان بالغرفة ضابط طويل، ملابسه نظيفة أكثر من اللازم ويحمل قلمًا ودفترًا صغيرًا، وينظر في حنايا الغرفة دون لمس أي شيء، ثم يدوِّن ملاحظاته.

بمنتصف الغرفة، أمام التلفزيون وجهاز البلاي ستيشن، رأيت الجثة.

ما زالت علامات ضربي له تفترش بدنه العاري، ولكن منظر تلك الرصاصة في المنطقة العليا من رأسه، أثلج قلبي.

شعرت بارتياح لم ينتَبني منذ أن نجحت بالثانوية العامة.

ابتهجت نفسي ووددت أن أزغرد.

فكرت جديًّا في التراجع والخروج من الغرفة. لطالما فشلت في الكذب والتمثيل ولا أجد الآن دموعًا أذرفها أمام الضابط الذي استغرق في التفكير والتدوين، حتى إنه لم ينتبه لوقوفي خلفه بعد.

تراجعت لأخرج، ولكني لمحت ما أوجل قلبي.

تحت طاولة البلاي ستيشن، على بُعد شبر من يد الميت، كانت فردة قرطي الأسود الصغير الذي فقدته هذه

الظهيرة.

بمجرد أن تذكرت كيف ولماذا سقط قرطي من أذني في هذه المنطقة بالتحديد، اجتاحتني مشاعر الحسرة، وانهمرت دموعي بشكل لا إرادي حتى وجدت نفسي أجهش بالبكاء.

انتبه الضابط لصوت أنيني، فالتفت إليَّ.

تظاهرت بأنني غير قادرة على الوقوف فألقيت نفسي على الأرض بجوار الجثة، حتى ألتقط فردة قرطي سرًّا.

ـ البقاء لله. اهدئي، دعينا نخرج من الغرفة.

التقطت القرط الصغير وأخفيته بين أصابعي حتى لا يلمحه الضابط.

كدت أنهض بينما استمرت مسرحيتي الميلودرامية، ولكن تحول الشجن إلى رعب وذعر لحظة أن قبضت الجثة على رسغي.

صرخت فوجدت الجثة تفتح عينيها وتسترد وعيها.

للحظة، ظننت أن ذلك شُبِّه لي بسبب الضغط العصبي المريع الذي تعرضت له اليوم، ولكني رأيت علامات الصدمة على وجه الضابط.

اقترب من الجثة العائدة من الموت وتفحص مواضع نبضها ونَفَسها.

يا له من ضابط أحمق!

كيف لم يتأكد من حالة الجثة فور دخوله إلى موقع

الجريمة؟

اتصل بزميل بدا اسمه مألوفًا لي، وأخبره أن يسرع بالإسعاف، لم نعد نحقق في قضية قتل، الجثة حية!

يبدو أن الأفلام خدعتنا حين علمتنا أن طلقًا في الرأس يسبب موتًا فوريًّا لمتلقيه.

يا لخيبة الأمل! إنها المرة الثانية التي ينجو فيها هذا الحقير من الموت، اليوم.

اللعين يأبى أن نقتله!

٤

عيسى

(قبل الجريمة بتسعة وعشرين يومًا)

الطاولة صفراء مربعة، الكرسي خشبي أحمر، الأرضية بيضاء، السقف أزرق تتدلى منه إطارات مرايا مذهبة.

أمامي سبورة سوداء مكتوب عليها بالطباشير الأبيض وباللغة الإنجليزية:

نحن لا نضيف رسوم خدمة إلى أسعارنا، الأمر يعود إلى تقديرك.

طريقة ذكية لطلب البقشيش.

أسمع أصوات الشوك والسكاكين تحتك بالصحون البيضاء اللامعة، أسمع ضوضاء الطهي المعتادة، فأنا أجلس على بُعد مترين من موقع مطبخ مطعمي المفضل «O's Pasta».

تتداخل من حولي همسات وغمغمات بلغات أجنبية مختلفة تقاطعها ضحكات عالية، بعضها سعيد بحق، وبعضها الآخر مصطنع.

ما زلت أبحث عن اسم فرح وكلمة صور أو انتحار في حديث أي شخص حتى لو كان من المستحيل أن يكون على علم بمأساتها.

أشعر بالذنب لمجرد التفكير في أنها مدفونة تحت الثرى،

ووحيدة في قبرها، وأنا المترف المدلل الذي ينتظر صحنًا من المعكرونة بعدما دفعت له أخته ثمانمائة جنيه حتى يبكي أمام مختص.

أقاطع تلك الأفكار السوداوية بتذكير ذاتي بأن هذا ليس صوتي، إنه صوت الحوت الأسود.

أقول لنفسي: أنا في تحسن، لقد ناضلت في السرير لساعة واحدة حتى أخذت القرار أخيرًا بالنهوض.

صحيح أن مايكل مر عليَّ وأجبرني على ترك الفراش والنزول معه، ولكن النتيجة واحدة.

اليوم، خرجت من البيت لتناول وجبة شهية بعد شهر كامل لم أرَ فيه الشارع.

اليوم، لم أرضخ لرغبات الحوت الأسود.

أشغل نفسي بتدوين المزيد من الملاحظات على هاتفي، حتى أتخطى ما تسرب إلى روحي من أفكار اكتئابية، وأتخلص من رغبتي في البكاء للمرة الثانية.

أسمع موسيقى مملة من سماعات المطعم، وأنتبه لصوت مايكل يخفي تجشؤه بعد أن تجرع كوب المياه الغازية على دفعتين.

أعرف مايكل منذ أن كنا نتدرب على السباحة في النادي طيلة المرحلة الابتدائية.

حين كنا بالصف الثاني الإعدادي، ترك التمارين واتجه للعب كرة اليد، فافترقنا وقلَّت وتيرة التقائنا بالنادي، حتى

انتقل إلى مدرستي منذ عامين فصرنا صديقين مقربين، يجمعهما مقت كرة القدم، وحب المعكرونة، وأغاني كايروكي والكثير من الاكتئاب الذي نداريه بتبادل الميمز.

انتهيت من تدوين الملاحظات التي لفتت نظري، ووضعت هاتفي جانبًا، ثم قلت لمايكل:

- كتبت ما يكفي.

- هل ارتحت لماجد؟

- نعم، أحببت قميصه.

- ما زال يرتدي قمصان ديزني؟

- وشرابات مضحكة.

- كانت شراباته أول ما لفت انتباهي حين زرته أول مرة منذ ثلاث سنوات.

- بدأ اكتئابك وأنت في الرابعة عشرة من عمرك؟

- أجل يا مستجد، لم تكن كلمتي الأولى وااااء، بل بروزاااااك.

- هل أتت جلساته معك بنتيجة؟

- نعم، كانت النتيجة أن قطع عمي المصروف عن أمي ونعتها بـ«المستهترة»، لأنها تبدد ميراثي على تفاهات.

- لماذا لم تقل لي وقتها؟

- لم نكن صديقين بما يكفي! ولكن لا تقلق، أنا على

ما يرام، لقد عوضتني أمي عن جلسات الدكتور ماجد وصارت تطبخ لي وجبة دسمة كل أسبوع... نحن عائلة تحارب الاكتئاب بالمحشي والكباب.

وضع النادل صحنَي معكرونة يجاورهما طبقان أحمران صغيران من جبن البارميزان.

انكب مايكل على الصحن بشهية مُعدية، فقد فرغ من الصوم عن الألبان واللحوم منذ أربعة أيام فقط، لهذا، غمس صدور الدجاج في الجبن والصلصة الروزيه ثم أكلها بشوق، إلى درجة أنه أغلق عينيه ومد شفتيه وهو يمضغها كأنه يهدي حبيبته قُبلتهما الأولى.

سكبت صحن الجبن على المعكرونة وأكلت.

شعرت للمرة الأولى، منذ أن بدأ اكتئابي، بطعم الأكل دون أن تغزو فمي مرارة أجهل مصدرها.

كانت سخونة الطعام مناسبة؛ معكرونة الفيتوتشيني مثالية التسوية، الصلصة الروزيه طعمها يجمع بين دسامة الجبن والحليب وعصارة الطماطم، ويصحبها المذاق الحامض لحلقات البصل الأخضر الناعمة وتتبيلة الدجاج الطازجة.

ذابت الأطعمة الغنية في فمي في تناغم، ميزت طعم كل عنصر عن الآخر.

الطعام شهي وطيب، ومع ذلك، عجزت عن أن أهنأ به. يأبى عقلي أن يتلقى إشارة الاستمتاع بالأكل.

وصفت الوجبة ضمن ملاحظاتي لليوم، في محاولة لشغل

نفسي عن حقيقة أنني فقدت نعمة كنت أتعامل معها بأريحية وكأنها لن تفنى أبدًا، وهي الاستمتاع بمذاق الطعام.

استمررت في التدوين المفصل حتى قاطع كتابتي اتصال بهيج، زوج شقيقتي مريم.

- ألو، يا بيجو.

- كيف حال أسدي المكتئب؟

- بخير، اشتقت إليك وإلى مريم.

- وأنا أيضًا. لِمَ لا تطلب لي صحنًا كصحنك؟ الطعام في سيوة لا يطاق.

- مهلًا، كيف عرفت أنني...

شعرت بيد تحط على كتفي فالتفت لأجد بيجو ومعه مريم أختي يقفان خلفي.

عانقني وربت على ظهري بشدة وقبَّل وجنتي، ثم عانقت مريم باشتياق، فهي الوحيدة التي تحب العناق في أسرتنا الجافة.

انضما إلى طاولتنا بعدما بادلا مايكل التحية.

كان إرهاق السفر جليًّا على مريم، بينما لم تظهر آثاره على ملامح بيجو الذي اكتسب سمرة جذابة بفضل تنقلهما بين شواطئ مصر خلال شهر العسل.

كان بيجو في منتصف ثلاثينياته، ولكنْ له روح وحماس مراهق يصغرني أنا شخصيًّا.

والده سليمان دامس، أشهر ملحني فترة الثمانينيات. كان يشتهر بملامحه الأجنبية والافتخار بنسله الممتد للباشوات الأتراك وعِرق أمه، ابنة أحد جنرالات الجيش الإنجليزي.

ورث يحيو عن أجداده الاستعماريين العيون الياقوتية الواسعة الكحيلة والبشرة البيضاء والشعر الأسود الناعم المسترسل على وجنتيه.

انفصل أبواه في سن مبكرة، فانتقل للعيش في كندا مع والدته، ولكنه كان يقضي الصيف كله مع أبيه في شقتهما التي تعلونا بثلاثة طوابق.

بعد وفاة أبيه، انقطعت زيارته عن مصر، ولكن أمه ماتت منذ عام، فترك كندا وقرر أن يستقر في مصر بشقة والده، وأن يفتح مشروع صالة رياضية بالمبلغ الذي ورثه عن والديه.

بمجرد أن استقر، وقع في غرام مريم وتواعدا لمدة شهرين، ثم خطبها لستة أشهر أعاد خلالها تأثيث شقته، ثم تزوجا الشهر الماضي، وقد قضياه كله في الانتقال بين شواطئ الغردقة، طابا، نويبع، الساحل الشمالي وأخيرًا سيوة.

شعرت بأن مايكل تضايق من جلوس يحيو بجواره، فصديقي شخص منغلق لا يحب الاختلاط بالغرباء، وعلى الرغم من أن يحيو اعتاد ارتياد حمام السباحة معنا بالنادي منذ أن كنا بالمرحلة الإعدادية، فإن مايكل لم يألف صحبته بعد.

أشار بيجو إلى النادل وأعطاه طلبه.

كانت تعليماته دقيقة؛ يطلب المعكرونة بتسوية معينة، والفراخ ببهارات خاصة، حتى حين طلب كوبين من المياه الغازية، طلب عددًا معينًا من مكعبات الثلج في كل كوب، وأن تكون فيه شريحة من الليمون الطازج، وشدد على أن تكون بداخله وليست معلقة على طرفه.

رحل النادل، فسألتهما:

- كيف كانت سيوة؟

أجابني بيجو:

- مالحة! الهواء رائحته يود، والماء ينزل من الصنبور شديد الملوحة. أصبح عضوي مثل الخيار المخلل يا رجل!

فرت مني ضحكة بلهاء، بينما توقف مايكل عن المضغ دون أن يرفع عينيه عن صحنه وبدت عليه علامات القرف.

زجرت مريم زوجها، فضحك ثم قال:

- ما خطبكِ يا مريم؟ الشباب لا يخجلون من بعضهم مثل الفتيات.

- ولكنهما صغيران على تلك النكات الجريئة.

- صغيران! في كندا، الفتيان في عمر عيسى ومايكل يعرفون كل شيء عن الجنس.

- بهيج! نحن في مكان عام يا حبيبي.

- ماذا قلت لكِ؟ لا تناديني بهذا الاسم الذي يثير الشبهات.

ضحك ضحكته الرنانة المميزة، ثم أضاف:

- نحن في مكان عام في بلد ديمقراطي يا مريومة، مَن يزعجه حديثي له مطلق حرية الرحيل عن المطعم. دعينا من هذا الكلام التافه... أخبرني يا عيسى، كيف كانت تجربتك مع ماجد هذا؟

- جيدة على ما أظن... كان رجلًا لطيفًا.

- ألا يزعجك الجلوس مع رجل غريب يملي عليك كيف تتصرف وما يجب أن تشعر به؟

اعترضت مريم:

- عيسى يمر بظرف يحتاج فيه إلى مختص يعاونه على التغلب على حزنه.

- لن يخرجه من حزنه سوى المرح. هيا يا عيسى، ما رأيك في أن نذهب في رحلة رجالية، أنا وأنت ومايكل.

اندفع مايكل قائلًا:

- لا! أمي لن ترضى.

- يا قلب أمك. حسنًا، فلنسافر أنا وأنت يا عيسى.

علقت مريم:

- عن أي سفر تتحدث؟ هل قطعت شهر عسلنا لتسافر مع عيسى؟

- نعم! الرجل في حاجة إلى مَن يدخل السرور إلى قلبه. لا تفهم النساء أمور السعادة هذه.

أجبته:

- لا أظن الوقت مواتيًا للسفر، أود أن أكمل علاجي مع ماجد، أشعر بأنني سأصل إلى نتيجة مرضية.

- وأنا أشعر بأنك تحمِّل نفسك فوق طاقتها، ما ذنبك فيما يحدث حولك من قبح؟ هذه الفتاة تنتحر وهذه تُذبَح، والجميع يخوض في شرف الآخرين، ليس الأمر مستحدثًا علينا. بحق الجحيم، منذ ألفي سنة جعل الله النبي عيسى ابن مريم العذراء ينطق في المهد، لأن الجميع اعتقد أن والدته زَنَتْ. احتاج قومه إلى معجزة إلهية حتى يغيروا رأيهم عن أمه ويتأكدوا من أنه ليس ابن زنى. لماذا تظن أنت أنك قادر على تغيير فكر هذا المجتمع العطن؟

انزعج مايكل من كلام يجو إلى درجة أنه توقف عن الأكل تمامًا، ثم وضع على الطاولة ثمن طعامه وهو يقول:

- حمدًا لله على عودتكِ من السفر يا مريم. أعتذر إليكم، يجب أن أنجز بعض المشاوير مع أمي.

ارتبكت مريم كعادتها، وقالت لمايكل وهي تحك حاجبيها بتوتر:

- مايكل، هل انزعجت منا؟ أكمل طعامك، سنتوقف عن الحديث.

- لست منزعجًا، أنا فقط... لا بأس، سأراكم في المساء.

خرج من المطعم على عجلة من أمره. إنها طريقته المعتادة في الانسحاب من أي حديث لا يعجبه.

راقبه ييجو حتى خرج، ثم علق بابتسامة ساخرة:

- لصديقك حياء العذارى.

- عفويتك صادمة بالنسبة إليه يا ييجو.

- إنها صدمة يحتاج إليها مَن في سنكما. لا ينجو بالصحاري سوى الصبار. إذا بقيت تقبل معاملة الناس لك كأنك نبتة منزلية واهنة، ستصبح كالزهور.

سألته مريم:

- وما خطب الزهور؟ الجميع يستحسن رؤيتها وأريجها.

- الزهور تقطف حتى تستمتعوا بها لسويعات ثم تذبل وتفنى في سبيل ذلك.

وجَّه باقي حديثه إليَّ:

- أنت في مرحلة انتقالية من المراهقة إلى الرجولة يا عيسى. عليك أن تفهم أن الاكتئاب والانغماس في الحزن والشعور بالعجز وتوريط نفسك في مشكلات غيرك وتعاستهم وكأنك السبب في مصائب الكون، لن يفيدك. أنت في السابعة عشرة من عمرك، لا يجوز أن تمضي شبابك في البكاء في عيادات الأطباء. عليك أن تنطلق، ترتحل، تتسكع على الشواطئ، ترقص مع الفتيات، تأكل المعكرونة مع شابة مثيرة وليس مع مايكل النكدي!

كنت سأدافع عن صديقي، ولكن النادل اخترق

حديثنا ووضع الطلب على الطاولة.

تأمل يحيو تفاصيل الطعام، ثم هز رأسه برضا وابتسم للنادل.

نغز اللحم بالشوكة وقطعه بالسكين ليتأمل تسويته وهو يقول:

- من الآن فصاعدًا سأجعل من تعليمك لأصول السعادة مهمتي الوحيدة.

غمزني فابتسمت له، يحيو هو أسعد رجل رأيته على وجه الأرض، يجعل من أي موقف نكتة ومن أي وضع كئيب حفلة مبهجة.

أكملت طعامي ثم نظرت إلى مريم، كانت ملامحها تشي بأنها ليست راضية عن أي مما قاله زوجها.

المرحلة الثالثة

المساومة

٥

صابرين

(قبل الجريمة بتسعة وعشرين يومًا)

الأم النشيطة تعلم بناتها الكسل!

أخبرت بتول أنني سأكون بحاجة إلى مساعدتها في المطبخ، وطلبت منها ألا تخرج كعادتها لتتسكع في المقاهي، بحجة أنها لا تقوى على العمل في البيت بهدوء.

أي هدوء هذا الذي تحتاج إليه، تترجم روايات من اللغة الفرنسية إلى العربية، لا تعمل في الذرة حتى تعترض على أجواء البيت!

ضربتْ بكلامي عرض الحائط، وأخذت حاسوبها وخرجت من البيت منذ الصباح.

الله لا يذلني لها، وليرزقها فتاة عنيدة ومزعجة ومهملة مثلها حتى تعرف مرارة ما تذيقني إياه.

زفرت ودخلت إلى المطبخ، وشغلت الراديو لأبدأ العمل.

انسابت منه أغنية «أنا بعشق البحر» بصوت محمد منير، فأصابتني قشعريرة وارتجفت يداي.

غيرت القناة سريعًا، وشغلت نفسي بغسل الأرز.

بالأمس، كلمتني مريم لتخبرني أنها ستصل اليوم وزوجها إلى القاهرة، لأن بهيج عرف أن عيسى ذهب إلى طبيب نفسي، فوجد أنه من الضروري أن يكون بجواره ويحاول التفريج عنه.

ونعم الزوج يا مريم!

لمريم مكانة خاصة عندي. هذا لا يعني أنني أفرق بين أولادي الثلاثة، ولكنْ لطالما كانت مريومة مطيعة وتفهمني دون حتى أن أتكلم، ولا تجيب سوى بحاضر يا أمي، نعم يا أمي.

زادت مكانة مريم عندي بعد أن تزوجت وعوضتني عن استحالة فرحتي ببتول التي اختارت حياة العزوبية.

لم تتزوج مريم أي شاب، بل بهيج سليمان دامس، أوسم وألطف شاب قابلته في حياتي.

أتخيل شكل أحفادي من الآن، سيرثون شعر مريم الفاتح وحمرة وجنتيها، وسيرثون عينَي بهيج الزرقاوين وطول قامته وبنيته الرياضية إن كانوا صبية، أما لو كانوا بنات فسيرثن نحافة خصرها وكثافة أهدابها.

بمجرد التفكير في الأمر وتخيل وقع كلمة «جدتي» في أذني، تغمرني السعادة وأشعر بأن صبري لم يذهب سُدًى.

بما أن مريم وبهيج بإذن الله سيحققان أسمى أحلامي، أفلا تستحق زيارتهما لي مباشرة بعد عودتهما من شهر

العسل أن أعد لهما غداءً عظيمًا؟

حمام محشي بالأرز والفريك، وبطتان، ومختلف أنواع المحاشي، وملوخية، وأرز معمر، وباذنجان مخلل.

إنه أول غداء يحضره بهيج في بيتنا بصفته زوج ابنتي، يجب أن أشرِّف مريم أمامه، كما أن المسكين يتيم الأب والأم وقد جفت معدته من طعام الشارع والوجبات السريعة. ألا يستحق أكلات منزلية شهية من يدَي حماته صابرين؟

أليست هذه أبسط مبادئ كرم الضيافة؟

لماذا إذن تصيح حماتي نصرة وتنتقدني بفظاظة؟

غسلت وجهي بعدما سال عرقي من حرارة الفرن، ثم نشفته بالفوطة، بينما وقفت حماتي عند عتبة المطبخ تنظر إلى الطعام باستنكار وتنهرني بصوتها العريض الذي بحته السجائر.

- عاشت مدينة السويس كلها على ١٤٠٠ شوال من الدقيق. هذه الكمية أطعمت ٢٠ ألف شخص لمدة ١٠١ يوم تحت حصار مشدد، وأنتِ تهدرين كيلوات من اللحوم والخضر والأرز من أجل ستة أفراد؟ بيت المهمل يخرب قبل بيت الكافر يا صابرين! لن تدروا قيمة النعمة حتى تذوقوا فقدها.

مارست موهبتي الوحيدة؛ الصبر.

اعتذرت إليها دون جدال، ووعدتها أنني لن أكرر هذا

التصرف الأرعن. نعتتني بـ«الكاذبة»، ثم خرجت من المطبخ لتكمل تدخينها.

أكره رائحة الدخان، وتلك العادة المقيتة التي نقلتها نصرة إلى بتول التي لم تعرف السجائر إلا حين انتقلت حماتي للعيش معنا منذ سبعة عشر عامًا عقابًا لي من زوجي.

ألعن اليوم الذي اعترضت فيه على زواجه عليَّ للمرة الخامسة.

هذا العدد الذي أعرفه، لم أعد أحسب عدد زوجاته منذ عام ٢٠٠٥.

حتى لا أكون كاذبة، أنا لم أعترض بالمعنى الحرفي للكلمة، بل كل ما في الأمر أنه اتصل من دبي في أثناء حملي في عيسى، وأخبرني أنه سيتزوج شابة أوكرانية وسيكسب ثواب إدخالها إلى الإسلام.

قلت له يا منتصر، أليس الأولى أن تكسب ثواب المكوث معي في أثناء الأيام الأخيرة من حملي عوضًا عن تركي بمفردي في هذه الأيام العصيبة؟

كانت مشادة كلامية بسيطة انتهت بأنه سيرسل أمه من السويس لتسكن معي حتى أتم ولادتي، لأن منتصر لن يقدر على الحصول على إجازة.

آل الأمر إلى بقائها معي سبعة عشر عامًا، ويبدو أنها لن ترحل عن بيتي حتى يفرقنا الموت.

ربما لهذا أصبح لعيسى ميول اكتئابية.

سمعت هذه المعلومة من طبيب نفسي ظهر في برنامج مدام مفيدة شيحة، قال إن الحزن في أثناء الحمل يؤثر على كيمياء مخ الطفل ويجعله اكتئابيًّا.

هذا يفسر لماذا كان عيسى كثير النحيب، تراه عابسًا في كل صور طفولته، وعيناه العسليتان مصطبغتان بحمرة البكاء.

لكنه كان نشيطًا، رياضيًّا وطويلًا مثل أبي رحمة الله عليه، طوله ١٨٥ سم.

والله لو حلق شعره ولحيته الشعثاء مثل شوشة الذرة هذه، لأصبح أوسم فتيان الحي ولوقعت الفتيات في غرامه، ولكنه عنيد مثل بتول ولا يقبل مني تعليقًا واحدًا على مظهره.

لن أضايقه على أي حال، فلقد أصابته العين حتى مرض بالاكتئاب.

كم مرة حذرته من نشر إنجازاته على الفيس زفت هذا!

يجيبني لستُ مميزًا إلى درجة أن يحسدني الناس يا ماما.

لستَ مميزًا؟!

الفتى الله أكبر عليه، يقرأ في العام الواحد خمسين كتابًا، ويتفوق على كل أقرانه في الدراسة.

ما شاء الله، ابني وسيم، رياضي، مفتول العضلات، أخذ المركز الأول في بطولة السباحة، وفي مسابقة الكتابة الإبداعية.

يتفوق في الرياضة، والأدب، والعلوم. لا يدخن سيجارة ولا يعرف المخدرات والحشيش وترهات هذا الجيل السافل.

يصلي الفرض في وقته ويفهم دينه، ويفيض قلبه بالإنسانية ثم يقول لي يا ماما لماذا سيحسدني الناس؟

يا لك من متواضع يا قلب أمك، لا تفهم الغل الذي يملأ قلوب الفشلة الحاقدين!

ها قد أصابته نكبة وَأَدَت عزيمته وغطته بنكد متواصل وساعات لا تنتهي من البكاء.

حبيبي بعدما كان يأكل فرخة كاملة بمفرده، صار لا يذوق الزاد، فما العمل يا ربي؟

حثونا في تربية البنات على أن نعلمهن العفة وصون الذات، وفي تربية الشباب على أن نعلمهم تجنب المخدرات والكحول، ولكنهم لم يعلمونا كيف نقيهم الاكتئاب!

أي زمن هذا الذي يضطر فيه فتى لم يحصل حتى على رخصة قيادة بعد، إلى أن يتنقل بين الأطباء النفسيين حتى يعلموه كيف يكون سعيدًا؟!

يا له من جيل تعيس، لن يقول أبدًا ليت الشباب يعود يومًا، فأيام شبابهم هباب في هباب.

أخذت أدعو لعيسى ابني بحق شقائي في تربيته ووقوفي في المطبخ لأطهو لأسرتي في هذا الحر اللعين، حتى سمعت باب الشقة يُفتح يتبعه نباح كلب.

كلب داخل بيتي؟!

هرولت إلى الصالة فوجدت وكستي البكرية توصد باب الشقة بالمفتاح وتحمل على ذراعها كلبًا أبيض صغيرًا ينبح بصوت ضعيف.

شهقت وضربت صدري ثم صحت فيها:

- ضربتِ بكلامي عرض الحائط يا بتول!

- يا ربي! قلت لكِ هذا الكلب سيساعد عيسى على تحسين مزاجه، كما أننا سننقذ روحًا من التشرد يا ماما.

- أي تشرد يا ابنة المتشردين أنتِ! أتريدين طرد الملائكة من بيتنا؟

- وأي ملاك يتحمل العيش في بيت المخابيل هذا.

- أستغفر الله العظيم. ورحمة أبي، لن يبقى هذا الكلب في بيتي.

- أنرميه في الشارع دون مأوى؟!

- أعيديه من حيث اشتريتِه... كم دفعتِ فيه؟

- إنه كلب إنقاذ.

- مثل كلاب المكفوفين؟

- بل أنا أنقذته من صاحبته. كان كلب عاهرة سجلت معه فيديوهات إباحية. وصلت عدة فيديوهات إلى إحدى جمعيات إنقاذ الحيوان وأبلغوا عنها شرطة الآداب، فقبضوا عليها وصار الكلب دون مأوى.

ـ أحضرتِ لنا كلبًا يعمل في الدعارة!

المستفزة ضحكت.

أعلم علم اليقين أن نهايتي ستكون على يد ابنتي البكرية التي لا تعرف حياء ولا خجلًا.

تنطق أمامي بكلمات لم أكن أعرف معناها حتى تزوجتُ، ولو لم تَمُت أمي وأنا في العاشرة من عمري، لكان تندى جبيني لمجرد التفكير في مفردات مثل «المواقع الإباحية» و«الدعارة» أمامها.

البجحة دنت مني وقربت الكلب صوبي وهي تقول:

ـ فقط انظري، أليس ألطف كائن على الإطلاق؟

في الواقع، كان كلبًا هادئًا وديعًا، أبيض اللون، غزير الشعر، عيناه مستديرتان ويبدو عليه الشقاء والحزن.

كان لطيفًا فعلًا، ولكن تفوح منه أكثر رائحة أمقتها؛ رائحة جوز الهند.

زادت ضربات قلبي وشعرت بضيق شديد وألم في جانبي الأيسر. اللعينة ستجلطني.

ـ بتول! لن أربي هذا الكلب.

ـ اتفقنا، سأربيه أنا وعيسى.

كانت ستكمل طريقها إلى غرفتها، ولكن لفتت انتباهي بُقع حمراء داكنة على إسوارة قميصها وطرف حجابها.

استوقفتها وأنا أسألها:

ـ ما هذا؟

تفقدت موضع البقع ثم أجابتني:

ـ إنه دم الرجل الذي ضربته.

يا صبر أيوب ويا حكمة الخضر!

لطمت وجنتَيَّ وصرخت فيها:

ـ ضربتِ مَن يا بنت منتصر؟

ـ خنزيرًا صفع مؤخرة طفلة لا يتخطى عمرها عشر سنوات. صحت فيه وسببته، ولكنه أنكر فعلته، وقال بكل بجاحة ولِمَ أتحرش بتلك الفتاة الهزيلة السوداء؟ زوجتي شقراء وعيناها خضراوان. كان يجب أن أفعل شيئًا حتى يفكر في المستقبل مائة مرة قبل أن يلمس طفلة صغيرة، فلكمته لكمتين ولكن اللعين بصق دمه في وجهي، وأنا كالبلهاء مسحت الدم بكُمي وطرف حجابي. لا تقلقي، سأفرك البقع بالليمون والملح.

ـ لا! لا! هذا يفوق احتمالي واستيعابي. يا ماما نصرة! اسمعي ما الذي فعلته حفيدتك.

أتت نصرة بخطواتها الثقيلة، فقصصت عليها ما صار فوجدتها تقول لبتول:

ـ أحسنتِ يا بنيتي، فيك مروءة جدكِ.

صحت فيهما:

ـ مروءة! المروءة للرجال، يا عالم! مَن في سنها يأخذن أطفالهن للحضانة، لا يضربن الرجال في الشوارع وينتشلن

الكلاب من بيوت الدعارة!

- أمن المفترض أن أرى رجلًا يتحرش بطفلة لا حول لها ولا قوة وأقف أصفق له؟

- فلتنادِي على العسكري.

ضحكتْ باستهزاء ثم قالت:

- إلى متى ستظلين تعيشين في حالة الإنكار تلك؟ العالم لا يدور حول جدران شقتك الأربعة فحسب. إن لم تتصدي لمن يؤذي غيركِ فسيطالكِ أذاه. أظنكِ أعلم الناس بهذا.

- يا حبيبتي، أنا أخاف عليكِ. ماذا لو كان يحمل مطواة وتهجم عليكِ أو فاقكِ قوة؟

- لقد تدربت بما يكفي حتى صرت أحترف الدفاع عن نفسي ضد هؤلاء الخنازير.

- ولِمَ المخاطرة من البداية يا ابنتي؟

- لأنني لست خاضعة لبطش الرجال مثلكِ يا أمي.

أخذت الكلب وصفقت باب غرفتها بعنف وظلت تصيح وتسب بغضب عارم وتركل أثاث الحجرة.

هكذا كانت بتول، قنبلة تنتظر من يلمسها حتى تنفجر وتدمر كل ما في طريقها.

٦

بتول

(ليلة الجريمة)

ستر رجال الإسعاف بدن العائد من الموت وحملوه على المِحفة، وخرجوا به من الصالة في طريقهم إلى عربة الإسعاف.

خنزير!

دعوت الله أن يموت قبل أن يصل إلى المشفى، ثم تذكرت أن موته سيعني بالتبعية إعدام أحدنا.

على الأقل، سننجو الليلة من حبل المشنقة.

انتشر رجال المعمل الجنائي يفحصون كل شبر من شقة زوجية مريم وبهيج، خاصة غرفة الاستوديو.

وصل معهم ضابط شاب، كان يبدو أكثر حزمًا من صديقه الطويل العاطفي الذي كان يتعامل معنا وكأننا في عزاء وليس موقع جريمة قتل.

الآن، غاب عني اسم الضابطين.

إنه التوتر الذي يجوب في رأسي مثل لعبة الباكمان، ويلتهم أحدث المعلومات التي ولجت إلى مخي دون حفظ، ولكني أذكر أن الضابط الطويل الذي كان معنا منذ البداية له اسم قائد عربي، وصديقه القصير الذي وفد إلى شقتنا حديثًا كان اسمه على اسم نبي.

اللعنة، من يبالي بالأسماء الآن!

فحص الضابط القصير ساعة الحائط الساقطة أرضًا بجوار الحائط المبطن بنظره دون أن يلمسها.

تهشم إطارها الزجاجي بسبب الطلقة التي اخترقتها فتعطلت عقاربها وهي تشير إلى الساعة الثانية والنصف فجرًا، أي قبل عودتنا من القسم بنصف ساعة.

قد يجد الضابط في ذلك دليلًا يؤكد أن الجريمة تمت في غيابي أنا وجدتي وعيسى، أو قد يعتبره تمويهًا مقصودًا منا.

تفحص موضع الرصاصة التي اخترقت الساعة ثم استقرت في الحائط المبطن، وحك ذقنه المختوم بطابع حُسن بارز.

أدرك مثلنا أن المسدس انطلقت منه رصاصتان، واحدة فاشلة والأخرى استقرت في رأس المجني عليه، لعنه الله.

نظر وراءه ثم مد ذراعه وأخذ يسير إلى الخلف دون أن يرفع عينيه عن موضع الرصاصة الفاشلة.

شاهدت ما يكفي من وثائقيات الجريمة وسير القتلة المتسلسلين حتى صرت خبيرة بالتحقيقات البوليسية، مما جعلني أفهم ما الذي يفعله هذا الضابط دون أن ينطق.

كان يتتبع خطوات القاتل حتى وصل إلى نقطة تناسب مسار انطلاق الرصاصة وقوتها.

همس إلى زميله، فدوَّن كلمتين في دفتره الصغير، ثم مال إلى الأرض ونظر إلى شيء ما.

دققت النظر مثله، كان ينظر إلى بقع دم وشيء يشبه طبقة من اللحم، فأشار إلى أحد رجال المعمل الجنائي لينتشلها ويضعها في كيس ورقي ليضمها إلى الأدلة البيولوجية.

لو كان هذا الضابط ذكيًّا بما يكفي سيصل إلى تخمين أن جدتي لا تملك إلا سلاحين، اطَّلَع زميله على تراخيصهما: بندقية، وهي ما زالت في المنزل وعليها دماء أبي بعدما ضُرب بكعبها على مؤخرة رأسه، ومسدس ماجنوم ٣٥٧، لم تجده جدتي بالبيت.

أي هاوٍ أبله سيجرح نفسه عند استخدام هذا المسدس للمرة الأولى إذا أمسكه كما تُمسَك المسدسات الأتوماتيكية الشائعة.

هذه الوضعية ستجعل إصبع السبابة تلمس الأسطوانة الخارجية للمسدس في أثناء دورانها لإطلاق الرصاصة، فتخرج منها شرارات وشظايا وغازات ستسلخ جلده وربما تقتطع جزءًا من لحمه.

كيف تعرفين هذه المعلومات الدقيقة عن المسدس يا بتول؟

الفضل يعود إلى نصرة السبع، لقد علمتني جدتي كل شيء عن الأسلحة والقتال وحتى طرق التخلص من الجثث.

على الرغم من سعة معرفتي بعالم القتل، فإنني أعلم أن الضابط لن يشك في أحد غيري.

ليس لأنني تصرفت تصرفًا مثيرًا للشك، في الواقع أنا لم أنطق بكلمة منذ أن رأيت الجثة، ولكني الوحيدة التي لفت كفها اليمنى بالشاش والضمادات الطبية.

قام الضابط القصير بحركة غريبة! أخرج من جيبه ليمونة، أخذ يضغط عليها بإبهامه ويمررها بين كفيه، ويقذفها إلى أعلى ثم يتلقفها في أثناء حديثه مع زميله، حتى التفت إليَّ ورأى جرح يدي.

أعاد الليمونة إلى جيبه واقترب مني قائلًا:

- ما خطب يدكِ، يا آنسة بتول؟

- وما خطب الليمونة التي تضعها في جيبك؟ هل تستعملها في المواصلات العامة؟

ضحك وهو يلمس موضع الليمونة في جيبه، ثم قال:

- يبدو أنكِ من محبي فيلم «٦٧٨». إنها عادة اكتسبتها منذ الطفولة ولأسباب لن تستوعبيها الآن. على أي حال، لم تعطيني إجابة بعد، ما سبب الجرح الذي بيدك؟

لم أجبه.

- حسنًا يا بتول. أين المسدس الذي استعملته لقتله؟ لا داعي للخوف.

- لست خائفة، هذا الخنزير الضاري يستحق أن يقتل ألف مرة.

- أعرف، شقيقتي البكرية كادت تقتل سيدة حاولت تسميمي من قبل. أنتِ مارستِ دور الأخت الكبيرة

التي تنشد حماية أخويها. أفهم دوافعك... فلنحمد الله أنه لم يمت، لن تواجهي الإعدام، وما فعله بكم سيخفف عقوبتك ويكسبك تعاطف الجميع، إنها قضية رأي عام.

ـ لا أريد تعاطف أي شخص، أريد العدل فحسب.

ـ العدل بالقانون، لا بإطلاق الرصاص على رؤوس الناس!

ـ ليست هي مَن أطلق الرصاص يا بني!

أتى الصوت من خلفي، فالتفت لأجد جدتي، تضم سيجارتها بشفتيها وتبسط كفيها أمام الضابط وهي تقول:

ـ فلتقبض عليَّ وتسجل عندك يا ولدي، أنا نصرة السبعِ، قمت وأنا في كامل قواي العقلية بقتل هذا القذر انتقاماً لأحفادي.

٧

بتول

(قبل الجريمة بتسعة وعشرين يومًا)

هدأت ثورتي الانفعالية وتوقفت عن ركل أثاث غرفتي.

وقفت ألهث وأدقق النظر في ضيفنا الجديد.

أحضرت الكلب بهدف الترويح عن أخي وتحسين حالته النفسية، ولكن هذا الجريفون الأبيض يبدو كرجل يعاني أزمة منتصف العمر أو صعوبة في تسديد ديونه.

مَن أخادع؟ أنا مَن أرهبه!

لم تمر بضع دقائق على دخوله إلى البيت حتى استفزتني أمي ودخلت في نوبة غضب، ركلت على إثرها كرسي مكتبي وصفقت درف الدولاب، وأسقطت مصباح الطاولة فوق السرير.

بالطبع أصبته بالهلع، ولهذا اختبأ أسفل فراشي في صمت.

أخذت أناديه وأنا أجاهد لمنع نفسي من الضحك بسبب اسمه البذيء.

اضطررت إلى أن أغريه بقطع من الطعام الذي اشتريته من أجله بعدما طَعمته وحممته وقصصت شعره عند الطبيب البيطري وعطرته بزيت جوز الهند.

استجاب لي وخرج من أسفل السرير وتناول طعامه، بينما غيرت ملابسي ثم سمعت باب شقتنا يُفتح ثم زغاريد

أمي، فعلمت أن بهيج ومريم وصلا.

سمعت خطوات عيسى في الطرقة، فناديته وألقيت ملاءة السرير فوق الكلب.

طرق الباب ليستأذن بالدخول على الرغم من أنني مَن ناداه. هذا المهذب هو تربيتي.

- ادخل!

- مريم وبيجو بالخارج.

- بالطبع، هل يوجد ما يدعو أمك للزغردة غير مريومة البارة؟! أغلق الباب واقترب.

نفذ أمري ثم وقف أمامي، فرفعت الملاءة عن الكلب لأكشف له عن هديتي.

- ما رأيك في هذه المفاجأة؟

- هذا الكلب لي؟

- لا، لأمك.

- قلت إنني أريد أن أحصل على كلب جيرمن شيبرد!

- وما خطب الجريفون؟

- طولي متران وأسير مع كلب يشبه كيس القطن!

- يا لك من فتى تافه ينقاد للمظاهر. هذا الكلب أنقذناه من التشرد، هل ألقيه في الشارع لأنك تود دعم بائعي الكلاب المتاجرين في مخلوقات الله وكأنها أدوات كهربائية؟

- ممن أنقذتِه؟

- من مديحة سهرات.

- ماذا؟!

- فتاة ليل كانت تستغل هذا المسكين في أعمال الدعارة.

- حسنًا... دعيني أخمن كيف يعمل دماغك هذا. أنا أعاني الاكتئاب، وأنتِ تريدين الترويح عني، فأخذتِ كلبًا يعاني صدمة نفسية بسبب العمل في بيت دعارة كي يهون عليَّ حالتي؟ انظري إلى نظراته البائسة وطريقة جلوسه الحزينة يا بتول. إنه في حاجة إلى العلاج النفسي أكثر مني.

- حسنًا يا عيسى، اذهب لجعل تجار الكلاب أكثر ثراءً وابتع لنفسك كلبًا بآلاف الجنيهات، سأعتني بهذا المسكين من دونك.

قبلت الكلب وناديته باسمه، فحملق عيسى إليَّ وقال:

- أهذا اسمه؟!

- أخبرتك أنه كان كلب مديحة سهرات، ماذا كانت ستسميه؟ لويس الرابع عشر؟!

- لا دخل لي بهذا الكلب، أبدًا.

- حسنًا، وأنا لن أتوسط لك عند أمك لتشتري كلبًا، ولن أدعمك في أي شيء، ولا حتى تنسيق الكليات.

- لخاطر هذا؟

- لخاطر الرفق بالحيوان، يا حيوان! فلترني كيف ستقنع أباك بدخول كلية الإعلام وليس الهندسة كما أمرك.

- لن أخبره، سأملأ استمارة الرغبات بمفردي، سأضعه أمام الأمر الواقع بدونك.

- ومن سيتصدى لصفعاته لك؟

- ماما.

- كانت تصدت لنفسها، يا ابن أمك.

- أنتِ بغيضة! سأخبر جدتي.

- انتظر.

فتحت درج الكومود وأخرجت منه علبة سجائر، ثم جذبت عيسى من أذنه ووضعت العلبة في يده وأنا أقول:

- حتى لا تسرق من سجائري مجددًا.

- أنا لم... لم أسرق منكِ. لا أدخن... أنا رياضي.

- رياضي وكاذب ولص فاشل.

سمعنا الباب يُفتح، فتوتر عيسى وألقى علبة السجائر داخل سرواله القصير كالأحمق، فتدلت من ساق السروال وسقطت أرضًا.

ضحكت عليه حتى دخلت مريم وأغلقت الباب خلفها.

لمحت علبة السجائر وعيسى يلتقطها من على الأرض ليعيدها إلى جيبه، فصاحت بصوتها الحاد المزعج:

- عيسى؟ ما هذا؟ أصرت تدخن؟

صاح فيها عيسى:

- أَخفضي صوتك! أمي بالخارج. إنها علبة بتول.

ألقى العلبة صوبي وكأنها تهمة فهمست إليه:

- جبان!

- بغيضة!

خرج من الغرفة وصفق الباب خلفه، فنظرت مريم إليَّ وسألتني:

- أتشجعين أخانا الصغير على التدخين؟

- ليس صغيرًا، أنتِ تكبرين عيسى بخمس سنوات فحسب، فلا تتظاهري بأنكِ صرت في مقام أمه لمجرد أنكِ تزوجت.

- يا إلهي، اشتقت إلى لسانك السليط.

عانقتني بشوق.

ربت على ظهرها سريعًا كي تتركني، ولكنها ظلت متشبثة بي كدودة العلق حتى اضطررت إلى إزاحتها قائلة:

- كفى! لقد عدتِ من سيوة وليس من الحجاز.

تركتني وانشغلت بالكلب.

بمجرد أن اقتربت منه ألقى بنفسه على حجرها، وظل ينظر إليها بهدوء.

- إنه يحبني، سبحان الله، كل الحيوانات تنجذب إليَّ!

- بهيج أكبر دليل على ذلك.

لم تجد مزحتي مضحكة، بل أخذت تحدق إليَّ حتى لمعت عيناها بالدموع.

تبًّا لي! هل سأبكيها؟

- ما خطبك يا عروسة؟ كنتُ أمازحك.

- أحتاج إليكِ يا بتول. لديَّ مشكلة، بل مصيبة! كارثة!

- ماذا حدث؟ هل ضربك هذا الخنزير؟ أقسم برب السماوات لو كان لمس شعرة منك فلسوف...

- لم يلمس أي شيء.

- ماذا تقصدين؟

- لم يلمسني... بأي شكل. لم يحدث شيء.

- لا شيء على الإطلاق؟

هزت رأسها إيجابًا.

- لماذا لم تخبريني؟ لقد اتصلت بكِ صباحية زواجك وقلتِ إن كل شيء على ما يرام.

- لأنني لم أفهم شيئًا من أسئلتك. كنت تقولين هل أجبرك على شيء؟ هل كان رقيقًا؟ هل راعى احتياجاتك؟ شعرت بأنني في عيادة الدكتورة هبة قطب.

- حسنًا، احكي لي بالتفصيل ماذا حدث.

- لا شيء. أعني انتهى الزفاف، ركبنا الطائرة. وصلنا إلى الغردقة، صعدنا إلى الفندق، دخل الحمام ليستحم ويغير

ملابسه ثم خرج. دخلت لأستحم فخرجت لأجده نائمًا!

- عله كان مرهقًا من السفر و...

- هذا ما قلته لنفسي. لم أعلق ولم أحاول إيقاظه، ولكن في الصباح، استيقظت ولم أجده بغرفة الفندق. اتصلت به فطلب مني أن أنضم إليه على الشاطئ، ثم لا شيء. أمضينا الأيام كلها في التسكع على الشواطئ والألعاب المائية والمطاعم ثم نعود إلى الغرفة. يستحم ثم ينام!

- هل حاولتِ أن تسبقيه وتستحمي قبله؟

- نعم، فنام ليلتها دون أن يستحم.

- أتودين إقناعي بأن هذا الوضع استمر لشهر كامل؟

- نعم، شهر كامل لم يفعل فيه شيئًا سوى معانقتي، لم يقبلني حتى يا بتول!

- حسنًا، لا تأخذي سؤالي على محمل اللوم، أود أن أفهم فقط، هل قلتِ شيئًا أو...

- لا، كنت في غاية اللطف معه، حتى إنني لم ألمح إليه بانزعاجي من أنه لم... لم...

- بالله عليكِ يا مريم، تكلمي كالكبار!

همست إليَّ:

- لم أسأله لماذا لم يعاشرني بعد. لم أشر إلى الموضوع بأي شكل، حتى لا أجرحه ولكني لا أفهم. هل هذا أمر طبيعي؟ في كل الأفلام العروسان يتعاشران ليلة الزفاف وطيلة شهر العسل.

ـ دعكِ من الأفلام، يجب أن تتعاملي مع الأمر بنضج. هذا زوجك ولا حاجة إلى الخجل بينكما، خذي الخطوة الأولى، ارتدي شيئًا مثيرًا، هيئي الجو بطريقة رومانسية، أقبلي عليه وقبليه وساعديه على خلع ثيابه و...

ـ يا إلهي! ماذا تقولين يا بتول؟ سيظن أنني عاهرة متمرسة.

ـ هل نحن بالروضة؟ عمرك اثنان وعشرون عامًا وهو في منتصف ثلاثينياته. هل سنتظاهر بأننا أطفال نجهل الجنس تمامًا؟

ـ أَخفضي صوتك... لا أريد أن يعرف بأي شكل أنني أحادثك في هذا الأمر، أنا متوترة بما يكفي.

ـ لا داعي للتوتر، أنتِ فقط في حاجة إلى كسر حاجز الرهبة بينكما.

ـ ماذا لو كان الأمر أكثر من ذلك؟ ماذا لو كان لديه مرض ما؟

ـ لهذا أخبرتكِ أنه من الضروري عمل كل الفحوصات الطبية اللازمة قبل الزواج، حتى لا تقابلك أي مفاجآت.

ـ هذا خبل! أكنتِ تريدين أن أقول لخطيبي أود التأكد من أن أعضاءك التناسلية تعمل بكفاءة؟!

ـ ما العيب في ذلك؟

ـ لسنا في السويد يا بتول. أفكارك هذه تخرب البيوت.

ـ حسنًا يا ذكية، فلتريني كيف ستعمرين بيتك الآن، إن

والدتك تفكر ليلًا ونهارًا في أسماء أحفادها.

- إياكِ أن تقولي لها شيئًا.

- بالطبع لن أفعل، أمك لا تؤتمن على سر. على أي حال، تحدثي مع بهيج بوضوح واستعدي نفسيًّا، فمن الوارد أنه قد يكون يعاني خللًا عضويًّا بالفعل. يجب أن تطمئنيه وتقترحي عليه أن يستشير طبيبًا، عسى أن يكون الأمر نفسيًّا فحسب بسبب وفاة أمه.

- ولكنه لم يذكرها على الإطلاق.

- هذا لا يعني أنه لا يرثيها. المهم أن تصارحيه برقة ولطف حتى لا يشعر بالإهانة، وأخبريه أنكِ زوجته الحبيبة وأنه لا داعي للخجل، وأنكِ ستدعمينه في جميع الأحوال.

- أنتِ محقة.

تنهدت وعادت لتربت على رأس الكلب، ثم قالت:

- ستكونين زوجة واعية وناضجة يا بتول.

- كلَّا، لن أكون زوجة تحت أي ظرف.

- لماذا يا أختي؟

- لست حمقاء مثلك حتى أقضي ما بقي من عمري في ظل رجل جاحد يعاملني وكأنني مِلك من ممتلكاته.

- مَن ملأ رأسك بتلك الترهات؟ بالتأكيد هناك رجال مؤذون ولكن أغلبهم رحماء. لديكِ بيجو وأبي وعيسى على سبيل المثال.

ـ عيسى لطيف لأنني مَن ربيته، أما بهيج فخطوبة ستة أشهر وزواج شهر ليسا كافيين لتحديد معدنه، وحتى الآن لا أفهم سبب تسرعكما في الزواج و...

ـ لن نتناقش في هذا الأمر للمرة المليون. دعكِ من بهيج، ماذا عن أبي؟ أليس رجلًا كريمًا ومحترمًا؟

ـ أبوكِ، الله يسامحه.

٨

عيسى

(قبل الجريمة بخمسة وعشرين يومًا)

كنت أسجل على هاتفي كل مرة انتصرت فيها على حوت الاكتئاب الأسود، حتى أقرأ تلك الانتصارات قبل النوم، عسى أن تمدني ببعض الثقة في ذاتي.

اليوم، استحممت وارتديت منامة نظيفة.

اليوم، فرشت أسناني وسرحت شعري وهندمت ذقني.

اليوم، أنهيت صلاتي دون بكاء.

اليوم، ذهبت مع يحيو إلى الصالة الرياضية لأرفع بعض الأثقال، وأسترد وزني الذي فقدته خلال الشهر الماضي.

اليوم، شربت كوب شاي بالنعناع مع جدتي في البلكونة على صوت عبد الحليم حافظ دون أن أتخيل نفسي أقفز من الشرفة وألقى مصير فرح.

اليوم، أكلت شطائر الكبدة الحارة مع بتول في غرفتها، وتقاسمنا سيجارة أمام فيلم وثائقي عن سفاح نساء إنجليزي دون أن تطاردني صور نيرة أشرف وهي مذبوحة في الشارع.

اليوم، نهضت إلى الحمام حتى أغسل وجهي بعدما بكيت لخمس عشرة دقيقة متواصلة بدلًا من الاستسلام للنوم والدموع تسيل على خدي وتبلل الوسادة.

كانت حرابًا واهنة أغرسها في بدن الحوت الأسود الغليظ وأنا لاهث الأنفاس، ولكنها على الأقل تشعرني بأنني أجاهد، أحارب، لا أخضع كليًّا لضراوة الاكتئاب المهلك.

لم يثنِ ماجد على انتصاراتي الصغيرة فحسب، بل وصفها بالعظيمة والمبشرة، ثم كلفني هذه المرة أن أستيقظ كل يوم في وقت الفجر لأسير لمدة ساعة كاملة في الشوارع.

لم يطلب مني التريض. فقط التنزه والسير على مهل دون وضع سماعات بأذنَي حتى أسمع أصوات العصافير المختلفة، ولكي أرى منظر الأشجار وشكل السماء في ساعة الشروق.

لم أكن واثقًا من مقدرتي على السير وسط الناس في الشوارع بعد.

لسبب ما، كنت أشعر بأن جبيني مكتوب عليه «احذر التعامل مع هذا الكئيب البائس»، ولكني صَبرت نفسي بأن في الخامسة صباحًا لن ألقى أي شخص.

لا أحد يستيقظ في هذه الساعة سوى محاربي الأرق والاكتئاب أمثالي!

نبذني النوم ولازمني التوتر وكأنها ليلة امتحان سيحدد مصير حياتي حتى رنّ المنبه في تمام الرابعة فجرًا ليعلن عن فشلي في النوم.

تلكأت في الفراش لمدة خمس وأربعين دقيقة، حتى قررت أن أتغلب على مخاوفي التي لا أجد لها منطقًا.

صليت الفجر ثم وضعت ثيابي الرياضية غير المكوية وكأنها خرجت من فم كلب، ثم نزلت إلى الشارع.

احتضنني سكون ساعة الشروق التي بسطت جناحيها على شوارع الزمالك.

كانت الطرق خالية من البشر وبدت لي وكأنها في ذروة جمالها ونضارتها.

لا ضجيج أبواق سيارات، ولا ضوضاء بشر. فقط ترقرق أمواج النيل كرقائق الفضة وضي الشمس الذهبية المنعكسة على صفحته وحفيف أوراق الشجر الخضراء وأزهارها الندية.

آلمني جسدي بعض الشيء، فأنا لم أبرح فراشي منذ شهر ولم أحضر تمارين السباحة كما كنت معتادًا، ولم أتريض بما يكفي. ولكن بطريقة ما، تسلل إلى فؤادي شعور هجرني منذ أسابيع، التحمس لضي الشمس.

في اليوم التالي، تمكنت من النوم لأربع ساعات ثم استيقظت على صوت المنبه.

نزلت سريعًا للسير، وتلك المرة أخذت رواية جيب من روايات جورج سيمنون، وثوب السباحة حتى أعيد تنشيط عضلاتي بعد الانتهاء من نزهتي الصباحية.

خرجت من البيت وأخذت أولى خطواتي فوق الأسفلت. لمس جلدي دفء أشعة الشروق الرقيقة، ثم أخذت نَفَسًا عميقًا ملأ صدري بندى البكور.

شعرت بانتصار جبار على عتمة نفسي التي تخلت عني في الفترة المنصرمة.

ترجلت حتى النادي بعد مسيرة ساعتين كاملتين، واتجهت إلى حوض السباحة.

انتهيت من السباحة ثم أخرجت رواية سيمنون الأقرب إلى قلبي «ميجريه والسيدة العجوز».

كدت أضع سماعات الهاتف في أذنَي حتى تنبعث منها أغانيَّ الصباحية المفضلة، ولكن استوقفني صوت امرأة تقول:

- سأنتظرك في الكلوب هاوس حتى نفطر معًا يا لارا.

- حسنًا يا أمي.

التفت لأرى سيدة محجبة بمقتبل الأربعينيات ترسل قبلة في الهواء إلى ابنتها التي لا شك أنها لم تتخطَّ الثامنة عشرة من عمرها بعد.

خرجت الأم من البوابة مع دخول لارا إلى منطقة حمام السباحة.

كانت سمراء، لها شعر بني غجري مثل شعر ميريام فارس، وعيناها عسليتان، بهما شيء من الخضرة التي تبرز أكثر تحت أشعة الشمس، وشفتاها ممتلئتان، بهما حمرة طبيعية كحمرة التوت.

كنت أظن هذا النوع من الجمال يوصف بالروايات الرومانسية الموجهة إلى اليافعين السذج فحسب، ولكن

حُسن لارا كان سهلًا ممتنعًا تمامًا كما يقول أمير عيد في أغنيته:

أجمل واحدة من غير مجهود

لابسة عادي وشعرها مربوط

كانت ملابسها بسيطة بالفعل دون أي بهرجة أو تكلف. جينز فاتح، وقميص قطني أحمر مطبوع عليه شعار سلسلة «هاري بوتر» وترتدي صندلًا جلديًّا يكشف عن جمال أصابع قدميها المطلية بالأبيض الفاقع، فوقه خلخال فضي يثني على سمرة ساقيها الملفوفتين.

وضعت حقيبتها على شازلونج يبعد عني ببضع خطوات ثم أخرجت منها فوطتها.

كشفت عن عود رياضي ممشوق كلاعبات الجمباز، تبرز مفاتنه أسفل ثوب حمام السباحة الأحمر الذي ترتديه أسفل ثيابها الواسعة.

وضعت ثيابها على ظهر الشازلونج، وربطت شعرها حتى تدسه أسفل غطاء الرأس المخصص للسباحة، ثم نظرت نحوي فجأة.

يبدو أنني أطلت النظر إليها حتى أزعجتها.

اللعنة! ستظن أنني متحرش.

تظاهرت بالانشغال بالقراءة وكأنني لم أنتبه لوجودها من الأساس.

- المعذرة!

لا أظن أنها تحادث شخصًا آخر، فلا يوجد غيرنا في المسبح بهذه الساعة.

نظرت نحوها بحذر، فوجدتها تبتسم لي بملامح ودود وتقول:

- أعتذر إليك، هل يمكنك أن تساعدني على غلق الشمسية حتى آخذ حمام شمس؟ أعاني كل يوم من الوصول إلى رأسها.

كانت تنطق حرف السين ثاءً مثل الممثلة درو باريمور.

ما ألطفها!

انتفضت من على الشازلونج بشكل مبالغ فيه، متقمصًا دور أحمد السقا الشهم وأنا أقول:

- أجل، طبعًا، بالتأكيد. سأساعدك بالطبع.

أدركت أنني أتلعثم كالأخرق فآثرت الصمت، وجعلت من ربط الشمسية مهمة قومية.

بمجرد أن وقفت بجوارها، تبينت أنها أقصر مما تخيلت، فرأسها بالكاد يصل عند تحت إبطي.

فرق الطول بيننا أثار ضحكي ولكني تماسكت وصببت جلَّ انتباهي على مهمتي حتى أتممت غلق الشمسية كالمحترفين.

ابتسمت لي قائلة:

- شكرًا.

يبدو أنني أجبتها في عقلي دون أن أنطق بكلمة مسموعة، بل بقيت واقفًا في طريقها كالأبله أبتسم نصف ابتسامة.

لا أدري لماذا لم تخف مني وتأخذ أشياءها وتتجه إلى شازلونج بعيد عني!

لسببٍ ما، كانت تبتسم لي، ثم قالت بالنبرة الودود نفسها وهي تنظر إلى مقعدي:

- هذه روايتي المفضلة. ظننت أنني الوحيدة التي تقرأ لجورج سيمنون.

انتبهت لوجود الرواية على الشازلونج، فابتسمت ابتسامة أوسع وأكثر بلاهة دون أي تعليق.

هزت لارا رأسها بامتنان ثم تركتني وقفزت إلى المسبح.

اليوم أحرزت انتصارًا مهيبًا.

ابتسمت لشخص لا أعرفه.

هكذا أدركت أنه صار لديَّ دافع أكبر للمجيء إلى حمام السباحة كل يوم، في الساعة نفسها.

* * *

واظبت على المشي والسباحة والحملقة إلى لارا.

كل صباح، أصل قبلها. تبتسم لي وتقول بالفرنسية بنبرة مشرقة:

- بونجور!

- بونجور!

أسأل نفسي: كيف عرفت أنني تخرجت في مدرسة فرنسية وأجيد هذه اللغة بطلاقة؟

أخذت أرسم سيناريوهات خيالية في رأسي. لا شك أنها معجبة بي فبحثت عني على الفيسبوك حتى رأت اسم مدرستي في بياناتي.

انهار هذا المسلسل التركي حين أدركت أنها لا تعرف اسمي، كي تجدني على مواقع التواصل الاجتماعي.

خرجت من أوهامي نهائيًّا وأدركت أنني حمار كبير، هي تعرف أنني أجيد الفرنسية لأنني أقرأ رواية فرنسية بلغتها الأم!

لخمسة أيام، لم يتخطَّ تعاملي مع لارا حيز التحية الصباحية والابتسامات الصامتة وطلبها لأغلق لها الشمسية.

مريم تقول إن طلب الخدمات هو لغة من لغات الحب عند الفتيات، بينما تدحض بتول هذه النظرية وترى أنها لغة المتنطعات، فالفتاة الحق تجيد الاعتماد على نفسها ولا تنتظر المساعدة من الجنس الآخر.

حاولت ألا أرهق نفسي بالتفكير في تفسيرات وفك شفرة سلوك البنات، لا أؤمن بأن هناك قاعدة ثابتة لفهمهن، كلٌّ منهن لها كتالوجها الخاص.

اكتفيت بمراقبة لارا وهي تسبح بنشاط وحماس مفرط. تذرع حمام السباحة الأوليمبي ذهابًا وإيابًا، طولًا وعرضًا، دون أن تشعر بالإرهاق.

تخرج من الماء، فتذهب إلى الكافيتريا تطلب مخفوق الحليب المثلج بالفانيليا، تجلس على الشازلونج لتنهيه ثم تذهب إلى الكافيتريا مجددًا لشراء رقائق البطاطس بالخل، ثم تنهض مرة أخيرة لشراء اللبان بنكهة البطيخ.

لا تحضر طلباتها كلها دفعة واحدة، بل تظل تتحرك وتسير حول المسبح دون كسل أو كلل.

أحسدها على نشاطها!

في اليوم السادس من روتيني الصباحي الجديد، انضم مايكل إليّ عند حمام السباحة.

رفض كعادته أن يسبح معي. لسبب ما، أصيب برهاب من حمامات السباحة ترتب عليه أن ترك تمارين السباحة معي على الرغم من أن مستواه كان شديد التقدم.

آثر مايكل الجلوس على الشازلونج والاستماع إلى قائمة أغانيه التي تكاد تطابق قائمتي، وتركني أسبح بمفردي قبل أن تصل لارا وتطلب مني غلق الشمسية.

قفزت في الماء وسبحت طويلًا على أمل أن أستعيد لياقتي وكفاءة رئتَي.

أنهيت المجموعة الأولى من تمارين السباحة وكدت أشرع في المجموعة الثانية، ولكنني لمحت لارا جالسة بجوار مايكل على طرف الشازلونج الخاص بي وهما يتضاحكان في انسجام تام.

كانت ضحكتها مميزة، مزيج فريد من اللطافة الطفولية

والإثارة الأنثوية.

خرجت من الماء وحاولت التظاهر باللامبالاة، فسرت على مهل حتى لمحني مايكل وأشار إليَّ وهو يقول للارا:

- ها هو ذا، عيسى، بطل سباحة نادينا.

التفتت لارا إليَّ وقالت بصوتها المبتهج دائمًا:

- إذن هذا هو اسمك، عيسى؟

سألها مايكل قبل أن أجيبها:

- أتعرفان بعضكما؟

علقت لارا ضاحكة:

- أعرفه باسم الفتى الصامت الذي يقرأ لسيمنون، وهو على الأغلب يعرفني باسم فتاة البونجور.

- بل أعرف أن اسمك لارا.

لا أدري لماذا بدت جملتي خرقاء، حاولت تغيير مسار الكلام على الفور وأنا أسألهما:

- هل أنتما صديقان؟

أجابني مايكل:

- لارا جارتنا منذ القِدَم، ولكن أسرتها سافرت إلى الكويت ثم عادت مع أمها منذ شهر كي تلتحق هنا بالجامعة. لقد قررتُ أن نتولى إعادة تعريفها على وطننا بعد عشر سنوات من الغياب.

التفت مايكل إلى لارا قائلًا:

ـ عيسى ليس بطلًا رياضيًّا فحسب، بل هو أكثر المثقفين في فصلنا. سيساعدك على شراء كل الكتب والروايات النادرة التي تبحثين عنها، كما أظن أنه سيحب اقتراحك.

التفتت لارا نحوي، بينما غمزني مايكل من خلفها بابتسامة محرضة.

قالت لارا:

ـ كنت أقترح على مايكل الذهاب معي غدًا إلى معرض فناني عشرينيات القرن العشرين في قصر عائشة فهمي... هل أنت مهتم بهذا النوع من معارض الفنون التشكيلية؟

أكره الفن التشكيلي بكل صوره!

ـ بالطبع، أنا مولع به.

ـ عظيم! ألقاك غدًا، يا عيسى.

٩

عيسى

(قبل الجريمة بتسعة عشر يومًا)

تركت الفراش فور أن فتحت عينَي.

كنت جائعًا فخرجت من الغرفة لأجد جدتي صاحبة المزاج الرائق دائمًا، تأكل شطائر الفول والطعمية بالشرفة.

أكلت معها ثم شربنا الشاي بالنعناع ودخنت سيجارة، سمحت لي بأن آخذ منها نَفسًا واحدًا ثم لعبنا الطاولة.

غلبتني بالطبع.

استيقظت أمي بعدها بقليل تأكل شطيرة جبن وتلوك الجرجير كالسلاحف، ثم جلس ثلاثتنا في غرفة المعيشة وضوء الصباح الباكر المنعش يسقط على وجهي فيشعرني بشيء من البهجة غير المعهودة.

فتحنا التلفزيون ورفعت جدتي الصوت لأعلى ما يمكن حتى تشاهد فيلم «النهر الخالد» الذي رأته ما لا يقل عن مائة مرة. في كل مرة، تخبرني كم كان جدي شرف الدين يشبه عمر الشريف حد التطابق، وأنني ورثت دقة ملامحي وجاذبيتي منه وليس من أبي ذي الأنف المفلطح والعينين الضيقتين.

خرجت بتول من غرفتها بملامح منتفخة من فرط النوم وبشعر أشعث وبعينين حمراوين، يتبعها كلبها وهي تصيح:

ـ هل نحن في نادي السينما؟ أخفضوا صوت التلفزيون اللعين!

علقت جدتي:

ـ استيقظت الباشمترجمة لتقرف أهلنا! إنها العاشرة صباحًا. في سنك، كنت أستيقظ من الرابعة فجرًا.

ـ ولِمَ أستيقظ في الرابعة فجرًا؟ لأحلب الجاموسة أم لأؤذن مكان الديك؟

ـ ما من جاموسة غيرك. هيا استيقظي، فأختك وزوجها سيمران علينا خلال ساعة.

أخذت تتمتم وتضرب الأرض بكعبيها، حتى صفقت الباب خلفها ومعها الكلب.

خرجت بعدها بفترة وقد هذبت منظرها وأعدت لنفسها قهوتها السادة التي تجعلها مثقفة رسميًّا.

ارتشفت القهوة ثم سألتني:

ـ ما سر بهجة القرود التي على وجهك؟

أجابتها أمي:

ـ قولي ما شاء الله، ألا يكفي ما أصابه؟

علقت جدتي:

ـ على وجهه ابتسامة حلاوة البدايات.

سألتها بتول:

ـ أي بدايات هذه؟

- حفيدي عنده موعد اليوم مع عائشة فهمي.

- جدتي!

- سمعتك بالأمس تتحدث مع مايكل. مَن عائشة فهمي هذه يا عيسى؟ يبدو اسمها مألوفًا.

- عائشة فهمي هو اسم المكان الذي سأقابلها فيه، يا جدتي. إنه قصر ومعرض فنون.

غمزتني بتول وقالت:

- يا ولد يا مثقف، اختيار ممتاز للمكان.

- لم أختره بل كان اختيارها.

سألتني جدتي:

- إذن، ما اسم عروستك؟

- توقفي يا جدتي! ليست عروستي وهذا ليس موعدًا غراميًّا و...

قاطعتني بتول:

- لا تكن أبله، لا ينكر مشاعره سوى الطفل. إن كانت تعجبك فلِمَ المراوغة!

زغردت أمي وابتهلت ملامحها وهي تقول:

- أحمدك ربي. يبدو أن الأفراح لن تنقطع عن هذا البيت!

علقت بتول:

ـ أفراح؟ هذا الأرعن لم يتم الثامنة عشرة من عمره بعد. الدولة لا تأخذ بتصويته في الانتخابات وأنتِ تقولين أفراح وزفاف وهذه الترهات!

ـ ترهات يا بنت منتصر! الله يسامحك، دعك منها يا عيسى يا حبيبي. لقد أكلت الكتب عقلها. احكِ لي عن فتاتك، ما اسمها؟ ما مهنة والديها؟ هل تجيد الطهي؟

التفت إلى بتول قائلًا:

ـ أرأيتِ لِمَ أنكر مشاعري أمامكم؟ أنتم تبالغون في كل شيء وتشطحون بخيالكم وترفعون سقف توقعاتكم على أتفه الأسباب، ثم تستعجبون خوازيق الزمن!

ـ يا بني أنا أمك ويفرحني فرحك. أنت آخر العنقود، أنت آخر فرحتي ليس عندي ما هو أعز منك و...

رن جرس شقتنا وسمعنا صوت بهيج يطرق الباب بطريقته المميزة وهو يقول بإيقاع مرح:

ـ يا ماما صابرين، بيجو هنا!

انتفضت أمي بسعادة غامرة وهي تقول:

ـ بيجو حبيبي!

هرولت بحماس عارم، إلى درجة أنها ارتطمت بمقبض باب غرفة المعيشة، وأكملت طريقها دون مبالاة.

قلت لبتول:

ـ يرقص قلبها فرحًا كلما سمعت صوت بيجو، ثم تقول لي أنت أعز أبنائي يا عيسى!

- يا لك من محظوظ! رأيت من أمك ما يكفي من الحنان حتى تشعر بالغيرة حين تولي اهتمامها لغيرك، هذه قيمة ألا تأخذ من حنان أمك رشفة، لن تشعر بالغيرة من أي شخص.

نهضتْ فسألتها:

- إلى أين؟

- سأذهب إلى المقهى حتى أتم عملي، لديَّ حساسية من فرط طاقة وحماس ييجو هذا.

علقت جدتي:

- ليس من أصول الضيافة أن تتركي ضيوفنا.

- ليسوا ضيوفًا. هذا بيت أختي وييجو زوجها، إذن هو من العائلة.

- ولكن يجب أن تبقي معهم حتى...

- جدتي، أتدرين لماذا اخترت أن أكون مترجمة مستقلة تعمل من البيت؟

- لأنك لا تملكين ثمن البنزين.

- نعم، وأيضًا حتى أحافظ على عزلتي الفكرية دون أن أحتك بالعامة أمثالكم.

- والله المرحوم طه حسين ما كان في نصف عجرفتك هذه. هيا اخرجي، مع السلامة.

كادت تخرج ثم التفتت إليَّ وقالت:

- حاول أن تكون لطيفًا مع الفتاة التي ستقابلها اليوم، لا تُخنزِر!

قابلتها مريم في طريقها للخروج من الغرفة، وهمت أن تعانقها كالعادة، ولكن بتول تملصت منها قائلة:

- عانقتك بالأمس. ها، هل...؟

- ليس بعد!

زفرت بتول وهزت رأسها بخيبة أمل فسألتُها:

- هل ماذا؟

صاحت بتول:

- وما شأنك أنت؟

تركتنا بتول، بينما أقبلت مريم عليَّ وقبلتني وعانقتني، وكذلك فعلت مع جدتي ثم سألتني:

- كيف حالك يا حبيبي؟ في وجهك بهور القمر.

أجابتها جدتي وهي تصب لنفسها المزيد من الشاي:

- سيخرج في موعد غرامي.

- جدتي!

ابتسمت مريم وأخذت تدغدغني قائلة:

- أتخجل مني؟ حبيبي نضج وصار يخرج في مواعيد غرامية!

- توقفي!

ـ ماذا سترتدي؟

ـ قميصًا قطنيًّا.

ـ ما لونه؟ يجب أن تختار ثيابك بعناية، فالرجل الأنيق النظيف يأسر النساء. يمكنك أن تسألها ماذا ستلبس ثم تختار لونًا يتماشى مع ملبسها أو مع لون عينيها، ما لون عينيها؟

دخلت أمي إلى الغرفة تضحك بمرح، ويجو يعانقها ويقبل جبينها ويدللها بأسماء غريبة، ويحمل بيده عدة حقائب ورقية وهو يقول:

ـ يا الله! أنتِ هدية من السماء يا ماما صابرين.

ـ بل أنت عوض الله يا بهيج. أشكر ربي كل يوم أنه زوَّج مريم بألطف شاب على الإطلاق. تعالَ، ارتح على الأريكة حتى آتيك بفطورك المفضل.

دفعتني أمي إلى النهوض حتى تجلس يجو على الأريكة كلها بمفرده.

ثم تقول لي إنني ابنها المفضل!

قال يجو وهو يمسك برسغي:

ـ لا تنهض يا أسد، أحضرت هذا من أجلك.

أعطاني الحقائب التي يحملها ففتحتها، وأمي تغدق عليه بكلمات الثناء والشكر.

كانت الحقيبة مليئة بقمصان قطنية عليها شعار فرقة كايروكي ووجوه مطربيها، وكتب فرنسية نادرة لجورج

سيمنون لم أجدها في مصر قَطُّ، وحقيبة ظهر مطبوع عليها توقيعات مختلفة لكُتّابي المفضلين، وأقلام حبر أنيقة ودفاتر تغليفها جلدي صلب باهظ الثمن.

كانت الهدايا كلها باهرة، وكأنها صُنِعت لي خصوصًا وليست مجرد هدايا عشوائية لمراهق مكتئب.

- يجو، لقد كلفت نفسك كثيرًا.

- لا تكلفة بيننا. ماما صابرين أخبرتني أنك تعاني صعوبة في الكتابة، قلت ربما يحمسك قلم جديد ودفتر أنيق.

- نعم، ولكن هذا كثير.

- ليس كثيرًا عليك يا أسد، المهم أن تستعيد إشراقتك وتجهز نفسك، لأن لدينا مشوارًا مهمًّا الشهر المقبل.

أخرج من جيبه تذكرتين من الفئة الأولى لحفل كايروكي وقال:

- هذا أنسب مكان لارتداء قمصانك الجديدة.

صحت بحماس، فقد نفدت تذاكر الحفل بعد الإعلان عنه ببضع ساعات، ولم تتح لي فرصة أخذ قرار نهائي بأني سأتخلى عن اكتئابي وأحضر الحفل.

عانقني يجو وربت على ظهري، بينما أخذت أمي تمتدحه حتى رن جرسنا ثانية ونهضت لفتح الباب.

قالت مريم:

- يجو يقلق عليك كثيرًا يا عيسى. يود إسعادك والترويح عنك بأي شكل.

قال:

- بما أنك ترفض السهر معي ولا يعجبك ما يعجبني، قلت أجرب أن أشاركك ما تحب، سأستخدم علاقتي بالوسط الموسيقي وسأدبر لك لقاءً خاصًّا مع أعضاء الفرقة التي تحبها، ما رأيك؟

كطفل أبله، صرخت بحماس وعدم تصديق أنني قد أجلس مع موسيقيي المفضلين وأحادثهم كما أحادث أي شخص عادي.

عادت أمي إلى الغرفة وبصحبتها مايكل الذي كان يبدو باهتًا بائسًا متقلب المزاج كعادته.

هرولت صوبه بحماس الأطفال نفسه وقلت:

- انظر يا مايكل! بهيج سيدبر لنا لقاءً مع كايروكي، وأحضر لنا تذكرتين لكبار الزوار لحفلهم المقبل.

- حقًّا؟

علَّق بهيج:

- في الواقع، التذكرتان لي ولعيسى! لم أكن أعرف أنك أيضًا تحب الفرقة نفسها يا مايكل.

لماذا اندفعت واستنتجت دون مقدمات منطقية أن التذكرة الثانية لمايكل؟

أخرق!

زادت ملامح مايكل بؤسًا، ثم قال بنبرة فاترة:

- لا يهم. لا أحب التجمعات البشرية على أي حال... استعددت يا عيسى للذهاب إلى المعرض أم ماذا؟

سألني بيجو:

- أي معرض؟

أجابته مريم:

- عيسى سيذهب في موعد غرامي.

علق بهيج بابتسامة ساخرة:

- حقًّا؟ لم أكن أعلم أنك معجب بإحداهن، يا أسد!

- لست معجبًا بأحد!

جذبت مايكل قائلًا:

- هيا، لا نود أن نتأخر.

اتجهنا إلى غرفتي، ولكن جدتي لحقت بنا بعد دقائق، وقالت إنها لا تحتمل تدليل أمي السخيف لبهيج.

* * *

خلعت القميص وفردته على السرير، فقفز كلب بتول السخيف فوق كومة ثيابي النظيفة وأخذ يتمرغ ويتمطى عليها ناثرًا شعره الأبيض.

صحت فيه لينزل ولكنه لم يستجب لي بأي شكل. يعرف أنني لست الذكر الألفا بهذا البيت، فلا يطيع أحدًا غير بتول وجدتي.

هذا الكلب لا يحترمني بأي شكل من الأشكال.

أناديه، فلا يرهق نفسه بالالتفات صوبي إلا إذا كنت آكل شيئًا، وقتها يجلس على حجري أو يقف خلفي مستندًا إلى كتفي كما الببغاء، ثم ينتشل اللقمة من يدي.

في إحدى المرات دخل معي إلى الغرفة ونام بجواري على السرير، ظننتها لحظة ترابط بيني وبينه، ولكن حين استشعر مني أنني سأبكي أصدر صوتًا أقرب ما يكون إلى الشخير، ثم خرج من الغرفة. لا ينقص سوى أن يقول لي سد فمك يا ابن النكدية.

حتى حين جربت أن ألاعبه لعبة الالتقاط، ألقيت صوبه كُرته، فنظر إليَّ باستحقار، ثم صعد بجواري على الأريكة، وأخذ يقلب نظره بيني وبين الكرة حتى أنهض وأحضرها إليه.

حين فعلت ذلك، ألقى الكرة مجددًا، ونظر إليَّ النظرات نفسها لأعيد الكرة حتى أصبح هو الذي يلاعبني لعبة الالتقاط، لا العكس.

جعلت صوتي أكثر غلظة حتى يطيعني وينزل عن ثيابي، ولكنه أصدر صوت الشخير مجددًا.

رمقته جدتي بحدة ونادته باسمه السخيف، ثم أمرته بنبرتها المهيبة بأن ينزل.

لم يتمالك مايكل نفسه وضحك على بذاءة اسمه، بينما أطاع كلبنا اللعين جدتي ونزل عن ثيابي على الفور ووقف عند قدميها بمنتهى الطاعة والالتزام.

كانت الجدة نصرة جالسة على طرف سريري بجوار مايكل لتساعدني على اختيار المظهر اللائق بخروجي اليوم مع لارا.

رشفت الشاي من كوبها الزجاجي المفضل بعدما أجبرتني على تغيير قميصي للمرة الثالثة، لأن ألوانه مائعة لا تليق بالانطباع الذكوري الذي يجب أن أتركه عند لارا في لقائنا الأول.

ارتديت قميصًا مختلفًا، فنظرت إليَّ ثم علقت:

- ورحمة أبي، أملك قميص نوم لونه نفس درجة قميصك المخنث هذا.

- نحن في ٢٠٢٢، لم تعد هناك ألوان للشباب وأخرى للبنات يا جدتي.

- بل لم يعد هناك رجال من الأصل، يا عين جدتك. لماذا لا ترتدي البدلة التي حضرت بها فرح أختك؟

- لست ذاهبًا لخطبتها، إنه معرض لوحات.

- أليس مثل معارض الأوبرا؟ الناس يلبسون البدل بالأوبرا.

أجابها مايكل:

- الأمر مختلف في قصر عائشة فهمي. نرتدي هناك ملابس عصرية، مثل جينز البوي فريند والقمصان القطنية السادة أو القمصان القماشية المشجرة والملونة.

- أيجب أن تكون ألوانها «حريمي»؟ الولد يربط شعره

ذيل حصان، ويرتدي قميصًا ورديًّا على سروال أبيض قصير. والله لا ينقصه سوى ثديين!

أجبتها:

- بحقك يا جدتي! لقد خطبك جدي مرتديًا بنطلون شارلستون وقميصًا أزراره مفتوحة حتى سُرته، وكان شعره كنيشًا وسوالفه تصل إلى صدره.

- اخرس، يا مُتنطِّع! ماذا تعرف أنت عن أناقة جدك شرف الدين، ولا سحر جدك شرف الدين؟ يا جيل معفن لا يعرف سوى السراويل الساقطة عن مؤخراتهم والممزقة عند ركبهم القذرة وأفخاذهم المشعرة.

ضحك مايكل حتى آلمه بطنه، فابتسمت رغمًا عني، بينما نظرت جدتي إلى كلينا وصاحت:

- الجلوس معكما مضيعة للوقت، سأعد كوبًا آخر من الشاي. عكرتما مزاجي يا وغدان!

خرجتْ من الغرفة يتبعها الكلب، ثم توقف مايكل عن الضحك وقال:

- البس ما يعجبك، لارا لن تفكر مثل جدتك.

- كنت سأرتدي أي قميص مكوي، ولكن مريم ظلت تؤكد على أهمية العناية بتفاصيل ما سألبسه. اللعنة! الجلوس مع النساء يسلبك عفوية التفكير وبساطته.

- ارتدِ القميص الأبيض البولو على جينز داكن فحسب. لا تفرط التفكير في الأمر.

أخرجت القميص القطني لأتفحصه وأتأكد من أنه نظيف بينما سألته:

- واثق من أنها صدقت كذبة أنك لن تتمكن من النزول معنا؟

- نعم، أخبرتها أنني أشك في إصابتي بالكورونا، وسأذهب لعمل الفحوصات حتى أتأكد.

- لم تعترض على مرافقتي لها؟ لم ترفض أننا سنكون وحدنا؟

- كلَّا، أعتقد أنها تبادلك المشاعر ذاتها يا عيسى.

- أي مشاعر؟ لا توجد مشاعر! أنا فقط... ماجد نصحني بتكوين صداقات جديدة.

- صداقات جديدة تجعلك تمضي ساعة ونصف الساعة تختار ثيابك؟

- هل العناية بالذات حكر على النساء؟

- لا تعطني محاضرة جديدة عن المساواة الجندرية. أردت أن أطمئنك، حاول فقط ألا تكون كتابًا مفتوحًا أمامها، لا داعي لمشاركتها أي أفكار سوداوية في أول لقاء بينكما، فلارا هي أسعد شخص رأيته في حياتي.

- سعيدة؟ هل هناك شخص ولد بعد عام ١٩٩٥ سعيد؟

- أسأل نفسي السؤال ذاته في كل مرة تأتي فيها مع أمها لزيارتنا ولكنها من عائلة مريبة. أتدري؟ أمي أخبرتني أن أسرة لارا تجتمع يوميًّا، مرة في الصباح ومرة أخرى في

المساء.

- للإفطار والعشاء؟

- بل للعناق!

- أتمزح؟

- أحادثك بأمانة. أُم لارا تقول إن هذا يساعد على توليد هرمون... هناك هرمون اسمه معقَّد لم أتمكن من حفظه، هذا الهرمون يأتي من العناق ويساعد على النمو السليم والسلامة النفسية.

- أهلها يعانقونها مرتين يوميًّا دون سبب؟! حين أراد أبي أن يعبر لي عن فخره بي بعدما فزت ببطولة السباحة صفعني على قفاي وضحك.

- هذا لأنه يجهل لغة الطعام. حشت لي أمي أعظم ديك رومي حين أخذت لقب أفضل حارس مرمى في فريق كرة اليد.

- لا يمكن للعناق أن يغلب حلاوة ديك أمك!

ضحك ثم أضاف:

- أتدري ما الأعجب من عناقهم؟ في نهاية أي مكالمة مع والديها تقول أحبك.

- مثل الأجانب؟

- نعم، إنها أسرة غريبة جدًّا يا عيسى. جميعهم يبتسمون ويمدحون بعضهم بدون سبب.

- يا إلهي! هل تسرعت في النزول معها؟ أنا أتعالج من الاكتئاب بحق الجحيم!

- قد تكون سعادتها المفرطة مُعدية. عسى أن تنقل إليك فيروس البهجة، يا صديقي. فقط لا تخبرها الآن أنك تذهب إلى ماجد ملاك، أعطِها فرصة للتعلق بك قبل أن تصدمها بحقيقة شخصيتك الكئيبة.

* * *

كنت أمر كثيرًا أمام قصر عائشة فهمي، ولكن لم يكن لديَّ ما يكفي من الفضول لاستكشافه من الداخل، لأنني دائمًا ما أجد حديقته الخارجية مليئة بالعشاق الذين يمسكون أيادي بعضهم ببعض، فتكونت لديَّ فكرة أن المكان يخص المرتبطين وحدهم.

وقفت أمام البوابة الرئيسية للمكان لعشر دقائق وهي مدة بدت لي أطول من عدد حلقات المسلسلات التركية التي تتابعها أمي.

أردت أن أتصل بها، هل تراجعت وتخلت عن مقابلتي؟

لن ألومها، ما الذي يدفع شخصية متفائلة، تعانق والديها مرتين يوميًّا، إلى الخروج مع شخص بائس مثلي، كلبه لا يطيق أن يعانقه؟!

راجعت الأيام الستة التي قابلتها فيها بالنادي.

كنت سخيفًا معها، وقليل الكلام، ونادر الابتسام.

اللعنة عليَّ! ستة أيام تلقي عليَّ التحية وأنا لم أخبرها باسمي

حتى.

لا شك أنها استيقظت اليوم ونظرت إلى المرآة، وقالت ما الذي يدفع فتاة مثيرة مثلي، كوكتيل بين ميريام فارس وروبي، إلى التسكع مع فتى باهت ومتجهم الوجه مثل عيسى شرف الدين؟!

بقيت عند البوابة، أتابع الشباب من جميع الطبقات الاجتماعية يمرون من جانبي برفقة حبيباتهم، ثم ينظرون إليَّ من رأسي وحتى أخمصي، وكأنهم يقولون يا حرام، يا له من أعزب مسكين!

لن أذل نفسي وأنتظرها أطول من ذلك، سألُمُّ ما بقي من كرامتي وأرحل.

كنت على وشك أن أبتعد عن البوابة، ولكني رأيتها تعبر الطريق وتلوح إليَّ بابتسامة لم أرَ في إشراقتها لا في الواقع، ولا حتى على شاشات التلفزيون.

ما ألطف تفاصيلها!

كانت ترتدي بلوزة وردية، درجتها نفس درجة لون القميص الذي استنكرت جدتي لونه، وجينز مرسومًا عليه بخيوط مبهجة وجه فريدا كاهلو، وترتدي بوسط رأسها باندانا تبرز غرتها على جبينها، بينما يتطاير باقي شعرها للخلف، وكأنه جزء من مشهد سينمائي ساحر.

ابتسمت لها واقتربت منها، فقالت:

- المعذرة، كلبتي كانت تأخذ تطعيماتها السنوية فتأخرنا

عند البيطري.

- لا بأس، لقد وصلت للتو. أنا أيضًا عندي كلب.

- حقًّا؟ ما نوعه؟

- جريفون. في الحقيقة، هو كلب أختي البكرية. اسمها بتول.

- كلبتك اسمها بتول؟

- بل أختي اسمها بتول.

ضحكت ضحكة طفولية خرقاء فابتسمت لها رغمًا عني.

- آسفة... أنا أيضًا كلبتي من فصيلة الجريفون الفرنسي.

- فعلًا؟ عظيم. لأكون دقيقًا، هو ليس كلب بتول وحدها، أنا أيضًا أعتني به.

- يا للطف! ما اسمه؟

- اسمه؟ اسمه روي.

- اسم جميل! المرة المقبلة أحضره معك وأنا سأحضر كلبتي كي يتعارفا.

بمجرد أن سمعت كلمة المرة المقبلة ابتهج قلبي.

دخلنا إلى الحديقة النضرة، حيث تتشابك الأشجار الكثيفة عند السور المطل على النيل الذي يجلس فوقه الأحبة لالتقاط الصور التي تجمع الماء والخضرة والوجه الحسن.

تخطينا كل المرتبطين بصعوبة بالغة، حتى دخلنا إلى

القصر وعيناي في وسط رأسي.

أقف خلف لارا وأمد ذراعًا على يمينها وأخرى على يسارها، تجنبًا لأي احتكاك متوقع من هذه الكتل البشرية، ولكنها كانت تسير بين الناس باندفاع دون أن تحسب خطواتها أو تتوتر من الزحام، وكأنها لم تسمع عن التحرش في حياتها كلها.

مررنا من البوابة وأنا أتساءل، إن كان هذا العدد المهيب من البشر بالحديقة، فكم شخصًا سنجده داخل القصر لحضور المعرض؟

الإجابة، ولا شخص.

كان المعرض شبه خالٍ. لوحات دون متفرجين فيما عدا بعض الرسامين الشبابَ الجالسين على الأرض بالقرب من اللوحات يقلدونها أو يصورونها.

بمجرد أن دخلت لارا إلى صالة المعرض جذبتني من معصمي وشقت طريقها بحماس حتى وقفنا أمام لوحة صبي ينظر إلى يمينه، وعلى وجهه نظرات بائسة وتعبيرات باهتة تمامًا كملبسه الرمادي التعيس.

شهقت لارا انبهارًا وهي تهمس لنفسها:

- مانيه!

أخرجت من حقيبتها دفترًا متوسط الحجم وقلم رصاص وبدأت ترسم اللوحة نفسها، وأخذت تنقل نظرها بين اللوحة وما ترسمه بحماس مفرط.

لا أفهم سبب انجذابها إلى تلك الرسمة التقليدية، مجرد وجه فتى حزين. لا شيء إعجازيًّا في هذه اللوحة الزيتية التي يغلب على ألوانها البهتان والتعاسة!

- أتفضل مانيه أم مونيه؟

لم أكن أعرف أن هناك فرقًا بينهما، كنت أظنهما الشخص نفسه ولكنه فرق النطق لا أكثر.

لو سألتني عن الأدباء أو المخترعين لعرفتُ الإجابة الصحيحة، ولكن معرفتي بالرسامين منعدمة.

راقبت خواتم الفضة ذات الفصوص الفيروزية وطلاء أصابعها الأصفر، وتظاهرت بأنني لم أسمع سؤالها فوجدتها تقول:

- أنا شخصيًّا أحب مانيه، لأنه قاد انتقال الفن الفرنسي من المرحلة الواقعية إلى المرحلة الانطباعية. هل رأيت لوحته «غداء على العشب»؟

- غداء على العشب... نعم، بالطبع.

- إذن أنت تفهم قصدي، إنه باهر.

- وأنتِ كذلك.

توقفت عن الرسم ونظرت إليَّ مبتسمة، ثم قالت:

- أنا مقدرة ما تفعله.

- ماذا تقصدين؟

- أنت لا تحب مانيه ولا مونيه ولا أي شيء يخص

الرسم، لقد أتيت حتى لا تتركني وحيدة بعدما اعتذر مايكل.

- آه... حسنًا، أنا حقًّا... لا أعرف الكثير عن اللوحات، أتمنى أن تعلميني، ولكني أتيت إلى هنا، لا لكيلا أتركك بمفردك... أعني، ليس هذا السبب الأساسي. في الواقع، مايكل ليس...

- لا تقل لي إنه يشك في إصابته بفيروس كورونا. لو كان الأمر كذلك لما ذهب إلى القداس الآن. الأحمق وضع على الفيسبوك صورة له مع كورال الكنيسة منذ عشر دقائق.

مايكل الأخرق!

ابتسمت لي مجددًا، ثم عادت لوضع اللمسات الأخيرة على لوحتها، وأخذت تسهب في الحديث عن لوحات مانيه والفرق بينه وبين مونيه، ثم عن تاريخ قصر عائشة فهمي.

لم أكن أعرف أنها ثرثارة إلى هذا الحد.

قاطعت حصة الفن التي اندمجت فيها وسألتها:

- هل تحبين المعكرونة؟

يبدو أن صوتي كان عاليًا من فرط التوتر، حتى إن مسؤول القاعة أشار إليَّ بأن أخفض صوتي.

ابتسمت لارا ثم قالت:

- هل أصابك مانيه بالجوع؟

- ليس مانيه. ماجد أخبرني أننا حين نكون مع صحبة

طيبة نشعر بالجوع، أود أن أشاركك شيئًا أحبه، لا أحب شيئًا أكثر من المعكرونة بالصلصة الروزيه.

- ماجد مَن؟

- طبيبي النفسي.

اللعنة!

لقد أمضت معي ربع ساعة فحسب، وهأنذا أخبرها بتاريخي النفسي الأسود.

ساد الصمت للحظة وهي تنظر إليَّ نظرة لم يتمكن عقلي من تفسيرها، ولكنني شعرت بضرورة ملحة للهرب.

- آسف... المعذرة.

وليت ظهري إليها وخرجت من قاعة القصر وضربات قلبي تتسارع والعرق يغزو كفي وإبطي.

أفسدت الأمر كليًّا!

إنها لعنة فرح، ما كان يجب أن أتخطى أمرها الآن.

ما كان يجب أن أترك الفراش وأخرج.

مَن أظن نفسي؟

ألأنني تمشيت بضع مرات في ساعة الشروق، صرت أحسب أنني انتصرت على الاكتئاب وتعافيت من ظلمة نفسي؟

- عيسى! عيسى!

شعرت بها تهرول خلفي في الحديقة بين حشود العشاق،

ولكن عقلي كان يأمرني بالرحيل عنها لأبعد ما يمكن، حتى وصلت إلى الشارع الجانبي لبوابة القصر.

ما زلت أسمع خطوات قدميها الصغيرتين على الأرض وصوتها يناديني حتى جذبتْ يدي فالتفت إليها وأنا أقول:

- آسف، ما كان يجب أن أنزل من البيت الآن! ليس بعد، لست جاهزًا، آسف!

- ولكني...

- لا عليكِ، أنا أفهم. أنتِ شخص سعيد، السعداء لا يجالسون الحزانى أمثالي.

- مَن أخبرك أنني سعيدة؟

- أنتِ تعانقين أهلك مرتين يوميًّا.

- ماذا؟

- أنتِ باهرة. أقصد لو كانت البهجة نهرًا، لكنتِ منبعها ومصبها. انظري إلى نفسك؛ فنانة حسناء، وأظن أنكِ تُجيدين رياضة ما؟

- الجمباز.

- توقعت ذلك. تحبين هاري بوتر وجورج سيمنون، وتعرفين الفرق بين المدرسة الانطباعية والمدرسة الواقعية. ملابسك ألوانها مفرحة، أسنانك بيضاء كاللؤلؤ، لديك غمازتان خلابتان، أنتِ تبتسمين وكأن الشمس تشرق من أجلكِ وحدك، بل وكأنك أنتِ الشمس نفسها.

- أنت مخطئ! أتدري لماذا سألتك عن ماجد؟ لأنني لا

أعرف شخصًا اسمه ماجد سوى الدكتور ماجد ملاك، وبما أنك في الزمالك وتعرف مايكل، اعتقدت أنك تعرفه مثلي.

- هل ماجد جارك أو صديق لوالدك؟

- بل كان طبيبي النفسي قبل أن أسافر إلى الكويت.

- طبيبك أنتِ؟ أنتِ أيضًا مصابة بالاكتئاب؟

- ليست كل الأمراض النفسية اكتئابًا يا عيسى. أنا لست نشيطة ومقبلة على الحياة كما تظن، أنا أعاني اضطراب نقص الانتباه مع فرط النشاط منذ الطفولة وقد رشحته والدة مايكل لنا.

- آسف، أسأت الحكم. لست شخصًا يميل إلى إصدار الأحكام على الآخرين قبل معرفتهم، صدقيني، أنا... أنا أمر بفترة اضطراب وخزي. أشعر بالكثير من الخزي والخجل من نفسي، لا أود أن أفعل أي تصرف أحمق يجعلكِ تأخذين عني انطباعًا خاطئًا. أنا أعافر كل يوم للاستيقاظ من النوم، ولكن طيلة الأيام الماضية مجرد تخيلي لرؤية ابتسامتك وأنتِ تلقين عليَّ تحية الصباح، كانت كفيلة بأن تدفعني إلى النهوض من السرير. بالأمس، كنت متحمسًا جدًّا لمقابلتك، إلى درجة أن الليلة الماضية كانت الليلة الوحيدة التي أنام فيها دون أن أبكي، لقد انشغلت بالتفكير فيما سأفعله وفيما سأقوله عند لقائك حتى نسيت البكاء. لم يخطر على بالي أنني سأفسد الأمر وأتصرف معك بهذا الغباء، لست نكديًّا يا لارا. كنت فتى يثق بنفسه ويجيد إلقاء النكات ويتحدث مع

البنات بسلاسة دون تلعثم أو توتر. لو قابلتني منذ شهرين لأعجبتِ بي على الفور.

- ومَن أخبرك أنني أشعر بعكس ذلك الآن؟

- حقًّا؟ حتى بعدما عرفتِ عني الآن؟

- بحقك يا عيسى، ألا تفهم بعد! لقد حضرت هذا المعرض ثلاث مرات. لِمَ قد أتحجج برغبتي في قدومك أنت ومايكل معي للمرة الرابعة؟

ابتسمتُ.

كان مايكل على حق، لارا تبادلني المشاعر ذاتها.

- حسنًا، أنتِ لم تُجِيبيني بعد، هل تحبين المعكرونة؟

- أكثر من الإيطاليين أنفسهم!

المرحلة الرابعة

الغضب

١٠

مريم

(قبل الجريمة بيوم)

منذ أن عدنا إلى القاهرة وأنا أجد في يحيى سلوكيات غريبة.

في البداية، اكتشفت أنه ملأ ثلاجتنا بالجعة المستوردة، بعدها صدمت بأنه يدخن الحشيش كل مساء.

والآن، صار يستيقظ كل صباح ويتسلل من فراشنا بحرص حتى لا يوقظني، ثم يتجه للاختلاء بنفسه في غرفة استوديو أبيه التي عزَّ عليه تحويلها إلى غرفة معيشة، وقرر أن يحتفظ بحالتها كاستوديو تسجيل صوت عتيق يطلق عليه اسم «الكهف الذكوري».

ما زلت أجد صعوبة بالغة في الحديث معه عن الأمر.

لقد قلبت جميع السيناريوهات في ذهني، الردود المتوقعة وغير المتوقعة كلها.

كل ليلة، أشعر بأنني مستعدة للحديث معه ثم أتراجع في آخر لحظة.

أُصبِّر نفسي على أنه سيعاشرني عاجلًا أم آجلًا.



الجنس ليس الشرط الأساسي للزواج الناجح بالتأكيد، المهم حسن المعاملة وبيجو يعاملني بلطف شديد، لا إهانة ولا قسوة ولا ضرب ولا بخل ولا تلفت نظره أي أنثى غيري، فهو يحترم وجودي.

يحسن بيجو إلى عائلتي وهم بدورهم يحبونه، خصوصًا عيسى، يعتبره أخاه.

يزوره كل ليلة، يحادثه ويطمئن عليه، ويذهبان إلى صالة الرياضة للتمرن، وأحيانًا يخرجان ويتسكعان معًا حتى يروح عنه أو يقضيان ساعات لا تحصى بغرفة الاستوديو يلعبان البلاي ستيشن.

كنا في حاجة إلى وجوده بسبب غياب أبي الدائم الذي أخذ إجازة شهرين من العمل بحجة حضور زفافي، ولكن ما إن انتهى عرسي حتى سافر مع زوجته الأوكرانية إلى شرم الشيخ، ولم يقرر العودة إلى القاهرة إلا اليوم، بل وطلب من بيجو أن يترك عروسته حتى يصحبه من المطار.

حركة غير لطيفة بالمرة من أبي! كان شهر عسله الجديد أطول من شهري عسلي أنا شخصيًا.

بالطبع، زوجي الخدوم لم يرفض. هو لا يرفض طلبًا لي ولا لأمي.

أريد أن أذهب للتبضع يا بيجو، حسنًا يا مريومة.

أريد أن أذهب إلى السينما يا بيجو، حسنًا يا مريومة.

أريد أن أصلح حاسوبي المحمول يا بيجو، فلنشترِ واحدًا

جديدًا يا مريومة.

طلباتي كلها مجابة قبل حتى أن أطلبها، ولكني ما زلت أشعر بالقلق والتوتر والضغط. ما الذي ينفر زوجي مني؟

قرأت على الإنترنت أن هناك فئة من الناس اسمهم «اللاجنسيون». هم أشخاص لا يعانون أي أمراض عضوية وليست لديهم اتجاهات جنسية مريبة. كل ما في الأمر أنهم يكرهون الجنس ولا يحبون ممارسته ويستحيل أن تثيرهم جنسيًّا، لأن لديهم حاجزًا نفسيًّا منيعًا ضد الجنس بمختلف أشكاله.

مع ذلك، هم قادرون على بناء علاقة عاطفية ولكنها تظل عذرية إلى الأبد، وذكر الموقع أن إسحاق نيوتن وإميلي برونتي كانا من المشاهير اللاجنسيين.

هل هذه هي ميول بهيجو؟

بتول كانت على حق، لم يكن من المفترض أن أتزوجه بهذه السرعة.

كنت معجبة به منذ أن كان يأتي إلى أبيه كل صيف وأنا طالبة في المرحلة الثانوية.

مَن التي لن تعجب ببهيج الذي يشبه ديمون سلفاتور؟

كانت له تلك الكاريزما الساحرة، وكانت لي رغبة ملحة في الزواج، فأنا لا أريد حياة الوحدة والعزوبية التي اختارتها بتول، ولا حياة العمل الشاق التي عاشتها جدتي، ولا أتمنى حياة الزواج الصوري التي تحياها أمي.



كان طموحي تقليديًّا ومشروعًا، أتخرج في كلية الآداب بتقدير مميز، ثم أتزوج وأنشئ بيتًا وأنجب أطفالًا.

أستيقظ مبكرًا، أعد لأسرتي الفطور، زوجي يُقبِّل يدي بامتنان، أجهز الأولاد للذهاب إلى المدرسة بعدما حضرت لهم اللانش بوكس، ثم أتواصل مع زوجي طيلة اليوم من خلال الواتس آب، بينما أشرف على عمل الخادمة وتنظيفها للبيت، وأعد الغداء ثم يعود زوجي الحبيب، فيلقاني بثياب مثيرة ورائحة عطرة وابتسامة واسعة، ويقبلني قُبلة عميقة مثل التي يتبادلها الأجانب.

وربي لم أطل حتى القُبلة منذ أن تزوجت!

بدأت أؤمن بمقولة جدتي، «نحن عائلة منحوسة لا تجذب نساؤها سوى الرجال الخائبين».

وفي الواقع، بدأت أَمَلُّ من خيبة زوجي غير المفهومة وغير المبررة على الإطلاق.

في بداية خِطبتنا، كنت أحترمه كثيرًا، لأنه لم يكن ينظر إليَّ نظرات افتراس جنسية كالتي ينظرها إليَّ زملائي بالجامعة.

كان الرجل الوحيد الذي ينظر إلى عينَي حين أحادثه وليس إلى صدري.

الغريب، أن الوضع لم يتغير بعد الزواج، حتى الآن لا يختلس النظر إليَّ بأي شكل.

أتعمد تغيير ثيابي أمامه، أعرض عليه أن أحممه بنفسي،

أقترح أن أمسد له ظهره قبل النوم.

دائمًا ما تكون إجاباته: لا، لا، شكرًا يا مريومة.

ولكن اليوم، سأضعه أمام الأمر الواقع، فإما أن يطارحني بالغرام، وإما أن يصارحني بما يمنعه من ذلك.

نهضت من الفراش سريعًا، خلعت ملابسي كلها، سرحت شعري، وضعت بعض الحمرة على وجنتيَّ وشفتيَّ، ثم عطرت فمي وبدني، وخرجت من الغرفة لا أضع شيئًا سوى روب حريري شفاف لا يستر ولا ينفع.

اتجهت إلى غرفة الاستوديو وأنا أفكر في الجمل المثيرة التي سمعتها بالأفلام الرومانسية الأمريكية التي أحفظها عن ظهر قلب، فأقولها لزوجي بنبرة مُغرية تشعل في قلبه الرغبة.

فتحت الباب على مهل، ولمحت ما يفعله.

توقفت في مكاني وقد تيبست أوصالي، وعجز عقلي عن استيعاب ما تراه عيناي!

الآن فقط، فهمت سبب انعدام رغبة زوجي فيَّ.

* * *

لم يعرف أنني رأيت شيئًا.

تسللت في هدوء تام وعدت إلى غرفتنا وتظاهرت بالنوم العميق، بينما سمعته يستحم ويستعد للخروج لاصطحاب أبي من المطار.

بمجرد أن خرج من الشقة جلست في الفراش أبكي.

أي مصيبة هذه!

لماذا أنا بالذات التي تقع في مأزق كهذا؟ لست خبيرة بالثقافة الجنسية مثل بتول حتى أجد مخرجًا من تلك الكارثة، ولست مسالمة مثل أمي لأقبل وضعًا مشينًا كهذا.

ربطت الروب على خصري وخرجت من الغرفة بعد بكاء طويل، عسى أن أكون ظلمته أو أسأت الفهم.

جلست إلى الطاولة المقابلة للزجاج العازل للصوت حيث حاسوبه المحمول.

فتحته ولكنه طلب مني كلمة السر.

جربت التواريخ كلها.

تاريخ زواجنا... بالطبع خطأ. لِمَ يرى في تاريخ زواجنا اللعين قيمة حتى يجعله كلمة سر حاسوبه!

تاريخ ميلاده، تاريخ ميلاد والدته، تاريخ ميلاد والده.

خطأ، خطأ، خطأ!

مَن أخادع على أي حال؟ لا داعي للتأكد، أعرف ما رأيت.

لا أعلم كم مضى من الوقت وأنا أفكر فيما يجب فعله. هل أصارحه وأطلب منه الطلاق أم أستشير بتول أولًا؟

في جميع الأحوال يجب أن أتظاهر بأن شيئًا لم يكن حتى ينتهي غداؤنا العائلي مع أبي وأمي، وبعدها سأجد حلًّا لهذه المشكلة.

كدت أنهض لأتجه إلى غرفتي وأعد نفسي لملاقاة والدي، ولكن فُتح الباب ووجدت يحيو يدخل الغرفة ثم يغلق الباب خلفه.

تفاجأ لرؤيتي في الداخل، فسألني وهو يمضغ علكته ويداعب مفاتيحه:

ـ ماذا تفعلين هنا؟

ـ كنت... أتفقد... كنت أتفقد الغرفة.

ـ لماذا؟

ـ لتنظيفها، سندعو أبي إلى الشقة، قد يود تفقد الغرفة.

ـ هل أخبرتِه شيئًا؟

ـ أخبرت مَن؟

ـ أباكِ. هل شاركته أسرار فراشنا؟

ـ عمَّ تتحدث؟ لا توجد أسرار بيننا حتى أشاركه إياها.

اقترب مني وهو يطرقع علكته في الهواء ثم قال:

ـ حسنًا، دعيني أعيد صياغة السؤال كي تستوعبيه، طيلة الطريق من المطار وحتى المنزل، كان أبوكِ يحدثني عن أمراض الضعف الجنسي التي تصيب جيلي وعن فوائد الفياجرا ومختلف أنواعها، ثم أنهى حديثه بتربيته على فخذي وهو يقول تشجع يا رجل، نريدك أن تملأ البيت أحفادًا. لا أدري يا مريومة، لم يسعني سوى التفكير في أنكِ حنثتِ بوعدك لي. ألم نتفق قبل الزواج بأن ما سيدور في هذا البيت، سيبقى في هذا البيت؟



أربكني.

كان يطرقع علكته ويخشخش مفاتيحه بين أصابعه، وترمقني عيناه الراكزتان بنظرات حادة، شعرت بأنها تخترقني وأنني إن نطقت بحرف خطأ سأدفع ثمنه على الفور.

لم أشعر بهذا القدر من الخوف والارتباك من قبل، ولم أظن قَطُّ أن لبيجو المرِح، هيبة قشعرت بدني.

قلت وأنا أحك حاجبَي بتوتر:

ـ لم أنطق بحرف! أبي يتمنى لنا الذرية الصالحة فحسب.

بصق علكته في يده ثم ألقاها في المرمدة، وقال بالنظرات الحادة نفسها:

ـ أصدقك، فالعاهرات هن اللاتي يخرجن أسرار فراشهن لأهاليهن. لستِ عاهرة، مريومة. أليس كذلك؟

هززت رأسي نفيًا، بينما نظر إليَّ من رأسي حتى أخمصي ثم قال:

ـ ما هذا الذي ترتدينه؟ أستلقين أباكِ هكذا؟

ـ كان هذا من أجلك... من أجل أن... بيجو، هل يمكن أن نتحدث؟ لم أعد قادرة على الصمت لأطول من ذلك، هل تود أن نذهب إلى طبيب؟

ـ طبيب من أي نوع؟

ـ من النوع الذي تحتاج إليه؟

- تكلمي بوضوح.

- ألم يحن الوقت كي نتم زواجنا؟ العلم تقدم كثيرًا، أنا سأدعمك، لن...

- هذا ليس كلامك، إنه كلام بتول، أليس كذلك؟ هل أخبرتها؟

- لا! أنا لم أقل شيئًا. هذا كلامي أنا.

- منذ متى وأنتِ تفهمين في العلم والتقدم الطبي والدعم النفسي؟

- لماذا تقلل من شأني؟ أنا أود أن أساعدك، أريد أن أصير زوجة طبيعية و...

- بل تريدين أن تصيري عاهرة!

صاح بعنف مباغت، ثم ركل المقعد قائلًا:

- هذا مفهوم الزواج بالنسبة إليكِ؟ أن تكوني مطيتي!

- اخرس! كيف لك أن تحادثني بهذه القذارة!

- لأنكِ غبية! ألم تفكري لماذا أنفر منكِ؟ أنتِ مثيرة للاشمئزاز! ترتدين أثواب نوم خليعة كالبغايا وتسيرين أمامي عارية وتودين أن نتحمم معًا وكأنك عاهرة متمرسة! لقد انكشف وجهك القذر وخلعتِ قناع العذراء الخجول التي تتورد وجنتاها إن لمستُ كفيها.

- تنعتني بـ«العاهرة» لأنني أتزين وأتغنج من أجلك بعدما صرت زوجتك وحلالك؟

ـ لو كنت أبغي الزينة والغنج لتزوجت غانية من الشارع، وليس عذراء بنت حسب ونسب.

ـ وهل زينتي وغنجي هما اللذان يدفعانك إلى مشاهدة تلك الأفلام الإباحية القذرة، يا بهيج دامس؟

ـ بأي ترهات تنطقين!

ـ رأيتك هذا الصباح. رأيت نوعية الأفلام التي تشاهدها وأي جنسٍ تحبه... أنت لا تمتنع عني لأني عاهرة كما تقول، ولا لأنك تعاني خللًا عضويًا يعوقك عن معاشرتي. أنت قذر وحقير ومريض!

حدق إليَّ لثوانٍ، ثم زفر بعمق وقال بصوت خفيض:

ـ مريض! أنا لا أحب هذه الكلمة. لا أحب هذا الوصف، يا مريومة يا حبيبتي.

اتجه نحو باب الغرفة، أوصدها بالمفتاح، ثم ألقى مفاتيحه على الطاولة، وخلع حزامه وهو يقول:

ـ لكِ ما تريدينه يا مريومة!

ـ ماذا تفعل؟ ابتعد عني!

ـ سأتمم زواجنا يا حبيبتي، إنه حقك الشرعي عليَّ.

ـ لا أريدك، بعد الآن. ابتعد عني، طلقني وحسب.

خلع سرواله فحاولت أن أنتشل المفاتيح من على الطاولة، ولكنه اندفع صوبي وصفعني بعنف، فطارت فردة قرطي الأسود.

دفعني بكل قوته فسقطت على ظهري.

صرخت بأعلى ما يمكن وأنا أنادي أمي وأبي، ولكني أعلم علم اليقين أن صوتي لن يتخطى جدران وزجاج الغرفة العازلة للصوت.

مزق الروب عني بوحشية وأنا أقول له باكية:

ـ توقف! أرجوك توقف! أنا آسفة، أنا آسفة. لم أقصد، أرجوك. لن أخبر أحدًا، اتركني!

لم يلتفت إلى كلامي.

كان تركيزه منصبًّا على أن ينهشني بقسوة وعنف، وهو يضغط على معصمَي ليثبتهما أرضًا دون حراك.

رأيت في عينيه نظرة جنون وحشي لم ألمحها في بشر من قبل.

لم أحتمل رؤية تعبيرات وجهه وهو ينتهكني، فحدقت إلى السقف وأنا أبكي وأصرخ حتى ينتهي وينهض عني قبل أن أموت من الفاجعة والألم.

لم يستمر الأمر لأكثر من ثلاث دقائق من الضراوة والوجع الذي اجتاح بدني كله، حتى فرغ مني وترك يدي ثم نهض عني.

نظر إليَّ لاهثًا لثوانٍ، ثم بصق في وجهي وصفع فخذي قائلًا:

ـ عاهرة!

نهض وهو ينتشل حزامه من على الأرض، فأعاد ارتداءه

ثم أخذ مفاتيحه من على الطاولة.

خرج وتركني عارية أحدق إلى السقف بمفردي.

سمعت صوتًا يشبه أنين كلب جريح، بعد بضع لحظات أدركت أنه صوتي، ولكنه كان بعيدًا وغريبًا عني.

لم أصدق ما ألم بي، عقلي لا يستوعب ما حدث لي منذ ثلاث دقائق!

انتفض بدني كله وشعرت بالعرق يتقطر من كل مكان، حتى معدتي لم تسلم من المعاناة، وصرت في حاجة مقيتة إلى التقيؤ فركضت صوب الحمام، وكل عظمة في جسدي تشكو من التعب.

أفرغت معدتي، ثم شعرت بألم عظيم بين فخذي.

ألقيت نفسي داخل مغطس الحمام بصعوبة بالغة، وجلست بداخله وفتحت على نفسي الصنبور.

اختلطت دموعي مع الماء والعرق وكل ما علق بي، ثم رأيت خيطًا من الدم ينزل في البالوعة.

اكتشفت أنني أنزف من قسوة ما عانيته، فتمكن مني الرعب وانتشلني من حالة الحسرة على نفسي.

بقيت في الحمام حتى سمعت صوته يغلق خلفه باب غرفة نومنا.

انتهزت الفرصة وارتديت ثيابي المعلقة خلف باب الحمام منذ عودتي من خروجة الأمس مع صديقتي، ثم تسللت إلى الصالة بأسرع ما يمكن والماء يتقطر من شعري.

انتشلت المفاتيح وخرجت دون حتى أن أقفل باب الشقة خلفي حتى لا يشعر بهيج بي ويعترض هروبي.

في طريقي وأنا أنزل السلم، اكتشفت أنني أسير حافية، ولكنني لن أخاطر بالعودة إلى البيت.

ركبت سيارتي وانطلقت إلى طبيبة النساء الخاصة بي، لتوقف هذا النزيف اللعين قبل أن أموت.

لم أدرك كم كان منظري مرعبًا إلا حين ركبت المصعد المؤدي إلى عيادة الطبيبة ورأيت انعكاسي الباهت في مرآته، فبكيت حالي رغمًا عني، حتى وصلت إلى الطابق المنشود.

لحسن حظي لم أنتظر طويلًا، دخلت إلى الطبيبة على الفور.

كانت الدكتورة سناء هي طبيبتنا منذ سن البلوغ وهي التي ولدَت أمي.

بمجرد أن رأت حالتي تلك أصابها الذعر، سألتني ماذا صار؟

عجزت عن الكلام، أخبرتها فقط أنني أنزف.

بمجرد أن طلبت مني أن أفرج ساقَي، استرجعت تفاصيل ما فعله بهيج بي، وأجهشت بالبكاء.

أخذتْ تربت على كتفي وتعتذر إليّ وهي تفحصني، حتى قالت:

- عزيزتي، انتهيت. يمكنك أن ترتدي ثيابكِ مجددًا.

نفذت ما قالته، ثم اقتربت مني وجلست أمامي قائلة:

- مَن فعل بكِ هذا؟ لا تخافي. أنا معك، سأتصل بالشرطة وسوف نزج بهذا الحقير القذر في السجن. لم يعد المجتمع يتساهل مع قضايا الاغتصاب، هيا، لا تقلقي... مَن فعلها؟

- بهيج، زوجي!

- زوجك؟ أرحت قلبي يا بنيتي، اعتقدت أنكِ تعرضت للاغتصاب.

- أنتِ لا تفهمين، لقد عاشرني ضد إرادتي. لقد اعتدى عليَّ وضاجعني بعنف، لم يكن يطارحني الغرام، كان يغتصبني.

- ما زلتِ شابة بريئة ولا تفهمين، الجنس ليس دائمًا رقيقًا وعاطفيًّا كما ترينه في الأفلام الرومانسية. كل ما في الأمر أن زوجك غشيم وقليل الخبرة.

- قليل الخبرة؟

- نعم، لقد انتابه الحماس فتخطى حدود اللين معك. حاولي أن تطلبي منه أن يرفق بكِ في المرة المقبلة، سأكتب لك بعض الأدوية حتى تستردي عافيتك وتصبحي جاهزة لممارسة حياتك الطبيعية مع زوجك، يا عروستنا.

- حياتي الطبيعية؟ أهذه حياة طبيعية؟ أقول لكِ إنه اغتصبني يا دكتورة سناء.

ـ حبيبتي، معاشرة الزوج لزوجته ليست اغتصابًا.

ـ ولكنه حبسني في الغرفة وكتفني وضربني و...

ـ حتى لو عنفك، هذا ليس اغتصابًا، لو شخص ما وضع أمواله داخل خزنة ثم قرر أن يكسرها ويأخذ منها ممتلكاته، أتكون هذه سرقة؟

حبست الدموع في عينيَ، ونهضت عن السرير وأنا أصيح فيها:

ـ لست خزنة أموال! أنا إنسانة!

١١

نصرة

(ليلة الجريمة)

في أكتوبر ١٩٧٣، نجح جيشنا في عبور قناة السويس، ولكن وجد العدو ثغرة مكنته من الدخول إلى السويس، موطني.

كنت من فدائيات السويس كما كانت أمي خلال العدوان الثلاثي.

كنت أعمل كممرضة طيلة فترة الحرب. يُنقل إلينا المصابون من جنود ضفة القناة الشرقية فأحسن الاعتناء بهم أنا وزوجي، شرف الدين، ولكن حين اقتحم العدو منطقتنا، حملت وزوجي السلاح وخرجنا لملاقاته.

قصف العدو مدينتنا جوًّا، واستهدفوا خزانات المياه والمواسير وأماكن التموين والمؤن ووحدات الاتصال.

ضربوا المدينة، ولكن عجزوا عن غلبتها.

ساهمت أنا وزوجي في مهمات تكاد تكون مستحيلة للتسلل بين دبابات العدو ومدرعاته، حتى نتمكن من الوصول إلى محل البقالة الوحيد الذي به هاتف يعمل، فننقل إلى القيادة أخبار ما يحدث تحت هذا الحصار اللعين.

الجوع والعطش يصارعاننا. ننهي صيامنا على كسرات

الخبز مع البصل المقلي والمخلل.

الأدوية قليلة، والمياه تنقطع اليوم كله ثم تعمل لساعتين فقط.

العدو يقصف أي سيارة إسعاف متجهة إلى خارج المدينة لإنقاذ الجرحى والمصابين.

الرجال يصنعون المتاريس والكمائن والأخاديد حتى يتصدوا للعدو، ويقابلون المدرعات والدبابات بالطبنجات والرشاشات.

النساء يداوِينَ الجراح، يصنعن الطعام، يُطعمن الأفواه، يؤازرن، يعاضدن، يربتن على الأكتاف، ويحملن السلاح ويُسقطن جنود العدو خلسة.

القيادة أعلنتها لنا صراحةً «كان الله في عونكم، سنحارب من أجل النصر حتى آخر فرد».

استبسلنا!

أنا وحدي أصبت ببندقيتي من نافذة مبنى مهجور عشرات الأفراد من جنود العدو، وقد كنت حاملًا في الشهر السادس.

أما شرف الدين فحدث ولا حرج. كان غضنفرًا ابن غضنفر، يقفز من النوافذ على الدبابات، يزحف أسفل المدرعات، يركض تحت وابل من الرصاص ثم يضرب بمدفع الآر بي جي دبابة يعطل بضربها تقدم خط الدبابات المكتسح للمدينة كلها.

كان بطلًا!

قبل صدور قرار وقف النار في مدينة السويس بأربع ساعات، كنت في المشفى أساعد الممرضات بخبرتي على تضميد الجروح، ثم وجدتهم يدخلون علينا حاملين رجلًا مصابًا بشظايا قذيفة، فقدَ ذراعه اليسرى وساقه اليمنى وخرجت أمعاؤه، ولكنه ما زال حيًّا.

كان هذا الرجل هو زوجي الشهيد شرف الدين.

كان يصارع الموت ويؤجله ما استطاع، حتى يتمكن من توديعي.

هربت مني الدموع وهو يضع يده على بطني المنتفخ ويكرر:

- منتصر، منتصر.

نطق الشهادة ثم مات.

صرخت زميلتي بمجرد أن غربت روح زوجي، ولكني صحت فيها وأمرتها بالصمت.

زوجي بطل، لا نندب ونصرخ ونلطم ونشق ثيابنا على موت الأبطال.

الأبطال لا يموتون.

زغردت والدموع تسيل على وجنتَي.

لم أتوقف عن الزغردة حتى نبح صوتي، ولو لم نكن تحت هذا الحصار اللعين والله لوزعت الشربات.

أحسنت دفنه أنا وأخوه أشرف، ثم أكملت عملي.

النساء يستشهدن بتماسكي، والرجال ينادونني بـ«السيدة نصرة البطلة»».

أسير رافعة الرأس، أحمل السلاح متى استطعت، وأساعد بالمشفى حتى تورمت قدماي وتقرحتا، ولكني لم أشكُ.

لم يشكُ أحد من أي شيء في السويس، أنزل الله سكينته ورضاه على قلوبنا أجمعين.

وقتها، كنا نسير في الشوارع المدمرة بين المباني التي غدر بها القصف، ونعجز عن التفريق بين البطل العسكري الذي يحارب بالسلاح وبين البطل المدني الذي يحارب بالعلاج والدواء. كنا جميعًا محاربين شرسين.

في اليوم المائة من الحصار، وضعت ابني بدون أي مسكنات أو مخدر.

أصرخ باسم شرف الدين وأناديه. والله كنت أراه واقفًا خلف الطبيب، يهتف لي كي أتماسك وآتي بابننا إلى الدنيا بسلام.

أتممت الولادة على خير، وأسميته منتصر، كما وعدت أباه ثم تعافيت وأكملت العمل مع أخواتي.

في الصباح التالي، انتهى الحصار بعد مائة وواحد يوم من الجوع والعطش والدمار والموت.

انتهت الحرب ولم يعد الناس ينادونني باسم نصرة البطلة،

صرت أم منتصر.

تحررت المدينة، وحبست أنا في قفص المجتمع وعادات عائلتي الصعيدية.

في أغسطس ١٩٧٤، أجبروني على الزواج بأشرف، شقيق حبيبي المرحوم.

كان يعاني مرض السكري حتى جف ماء عوده، وأصبح يعاني ضعفًا جنسيًّا شديدًا.

كانت هذه أعظم صفاته، لأنني لم أكن لأتخيل معاشرة رجل غير شرف الدين، وقد سعِد أشرف كثيرًا بتفهمي وعدم اعتراضي على عيشنا معًا كأَخوين.

كان رجلًا هادئًا، كريمًا، عامل ابني منتصر أحسن معاملة.

لم يرفع صوته عليَّ طيلة الفترة التي عشناها معًا، ولم يشكُ أي منا الآخر، ولم يسمع لنا الجيران صوتًا.

لذلك، لم يشك فيَّ أحد حين قتلته بجرعة زائدة من الأنسولين أدت إلى دخوله في غيبوبة سُكَّر شرسة، ومع تعمدي عدم نقله إلى المشفى مات في صمت كما عاش في صمت.

لولا أنني خطرفتُ بأنني قتلت زوجي الثاني، وأنا تحت تأثير البنج بعد أن خرجت من عملية الاستئصال الكلي لغدتي الدرقية، فسمعتني بتول وأنا أعترف بذلك، لما عرف أحد أبدًا أنني قتلته.

لا أحد على وجه الأرض يعرف ما فعلته بزوجي سنة ١٩٧٥.

لا يوجد دليل ضدي، ولكن لن أتردد عن ذكر الأمر بالتفصيل أمام هذا الضابط المدعو نوح الألفي حتى يصدق أنني لست مجرد عجوز لطيفة، بل أنا مَن أطلق الرصاص على رأس هذا القذر.

نظر نوح إليّ نظرات ريبة وشك وهو يقول:

ـ كذبك يا جدة يؤكد أنكِ تفدين أحد أفراد عائلتك. هذه الجريمة ليست من صنعك.

ـ لا أكذب يا ولدي. أنا صاحبة المسدس، وأنا مَن قتلته بكامل إرادتي. إذا لم يمت قبل وصوله إلى المشفى، فخير وبركة، لن أعدم. وإذا مات، فهنيئًا للمجتمع، فقد خلصته من هذا المجرم.

ـ أتظنينني ولدت أمس حتى أصدق ادعاءك؟ كنتِ من فدائيات السويس وتملكين بدل السلاح اثنين وعجزتِ عن التصويب وقتله وهو واقف أمامك؟ تطلب الأمر منك رصاصتين حتى تقتليه؟

ـ إنها الشيخوخة يا ولدي. حفظ الله شبابك.

ـ حتى وإن صدقتكِ، مسار انطلاق الرصاصتين يوضح لي أن طول مَن أطلقهما شخص قصير، شخص في طول حفيدتك، مريم التي تظاهرت بالنواح والعويل.

ـ ألديك دليل يدين حفيدتي؟

- ألديكِ أنتِ دليل على جريمتك غير إفادتك المليئة بالثغرات؟

- ماذا تريد غير اعتراف واضح وصريح؟

- إثباتًا دامغًا. إذا أخذت ملابسك إلى المعمل الجنائي، هل سيجدون عليها آثارًا لبقايا الطلق الناري الناجمة عن استعمالك للمسدس؟

- قتلته بملابس غير التي ألبسها الآن.

- أريني إياها إذن.

- حرقتها قبل أن آتي إليكم في القسم.

- ماذا عن يديكِ؟ هل سأجد عليهما آثار العيار الناري؟

- غسلتهما بصابون الصحون السائل وعقمتهما بالكحول ثم دهنتهما بمرطب دسم، أتحسبني مبتدئة يا ولدي؟

- حسنًا، أين الجرح الناتج عن لمس أسطوانة المسدس؟

- أتخالني لا أجيد مسكة مسدسي؟

- لماذا إذن أجد آثار جرح من موضع إطلاق الرصاص وأيديكم جميعًا سليمة فيما عدا يد الآنسة بتول؟

- فُكِّي الشاش يا بتول حتى يتأكد الضابط من أنكِ جرحتِ نفسك اليوم من زجاج الكوب المكسور.

رأيت بتول العزيزة متوترة وتضع يديها خلف ظهرها وتقول:

- لا داعي للكذب يا جدتي. يا حضرة الضابط أنا

القاتلة.

- اخرسي يا حمقاء! دعك منها يا ولدي، تود إنقاذ جدتها العجوز من السجن فحسب.

جذبت يدها عنوة ومزقت الشاش لأُري الضابط جرح سبابتها القطعي موضع زجاج الكوب الذي كسرته بتول في أثناء ثورتها الانفعالية ظهيرة اليوم.

قلت للضابط:

- انظر! جرح زجاج وليس أثر شظايا أسطوانة المسدس.

هز رأسه وقد بدت عليه خيبة الأمل، ثم قال:

- حسنًا، مَن صاحب الدم والجلد اللذين وجدتهما على الأرض؟

- لا علم عندي.

- فلتُريني المسدس إذن.

يا له من خبيث!

يود أن يفحص المسدس حتى يجد على أسطوانة رصاصته آثار الشخص المجروح ويقارنها بعينات دمنا وبصماتنا جميعًا ليعرف القاتل الحقيقي.

تظاهرت بالبلاهة وأنا أقول:

- إليك الحقيقة يا بني، حين تصل إلى عمري ستصير دائم النسيان، لقد خبأت المسدس في مكان لا يعلمه سواي حتى لا تنكشف خطتي، ولكن يبدو والله أعلم، أن

ذاكرتي خانتني مجددًا ونسيت مكانه.

زفر نوح ودعك عينيه المرهقتين، ثم وقف بجوار زميله قطز.

همس إليه وتبادلا بضع جملٍ وهما ينظران صوبي، حتى هز قطز رأسه واقترب مني قائلًا:

- تعالي معي يا جدة. سنضطر إلى أن نعود إلى القسم لأخذ أقوالك وعمل اللازم.

مد ذراعه صوبي كي أتأبطها ولكن قطع تقدمنا دخول ابني منتصر إلى الصالة وهو يصيح كالتيس:

- ماذا يجري؟ من هذان؟

نهره نوح:

- لِمَ الصياح يا أنت؟ من تكون؟

- تقف في شقة ابنتي وتسأل من أكون؟ أنا السيد منتصر شرف الدين.

التفت وحيدي إليّ وسألني:

- من هذا الذي تتأبطين ذراعه يا أمي؟

- إنه الضابط الذي أتى للقبض عليّ، يا خيبة أمك.

- ضابط؟ ألم أخبرك ألا دخل للشرطة بما حدث؟ انظري إلى ما قادك إليه عنادك! ألم يكفكِ ما فعلته برأسي؟

أشار منتصر إلى مؤخرة رأسه مكان كعب بندقيتي،

فضحكت بمزيج من المرارة والظفر، ثم قلت لنوح:

- أرأيت يا حضرة الضابط؟ كدت أشج رأس ابني الوحيد لأنه عصى أمري، ألا يُعد إطلاق الرصاص على رأس هذا الغريب رد فعل بسيطًا مقارنةً بما ارتكبه في حق أحفادي؟

١٢

بتول

(قبل الجريمة بيوم)

تجاهلت صياح أبي المعتاد سماعه في كل مرة يتكرم فيها بزيارتنا.

كان معترضًا على كل شيء.

على أننا لم نأتِ مع بهيج لاستقباله في المطار، على أن عيسى عصاه وذهب إلى الطبيب النفسي، وأنه سيفوت الغداء العائلي المقدس، لأن ميعاده يتداخل مع ميعاد جلسته النفسية. وبالطبع كان لي نصيب الأسد من اعتراضات أبي.

لماذا أدخلت كلبًا إلى بيته؟ لماذا صرت أرتدي التربون وهو خرقة لا تليق بوصف الحجاب؟ لماذا أتسكع على المقاهي حتى وقت متأخر مثل المنحرفات؟ أي عمل هذا الذي يُنجز في المقاهي؟ لماذا أرفض سماع تفاصيل وصفه للعريس الجديد الذي أحضره لي؟ يجب أن أحمد ربي أنني مقبلة على عمر الثلاثين وما زال يتقدم الشبان لخطبتي.

الكثير من الثرثرة الفارغة، والذكورية السامة التي جعلها المجتمع سلاحًا في يد الرجال أمثال أبي حتى ينكدوا علينا عيشتنا.

أهزُّ رأسي. ابتسم ابتسامة شديدة البرود. أقول إن شاء الله، يا حاج منتصر.

ينعتني بـ«المستفزة»، ويهددني بكسر رأسي العنيد هذا.

يسبني. يسأل الله أن ينزل عليَّ لعناته، فتنهاه جدتي عن هذا وتصيح فيه فيضطر إلى أن يصمت.

جلست العائلة البائسة إلى مائدة الغداء.

لم ينضم إلينا بهيج ولا مريم، تجاهلا مكالماتنا.

ودت أمي أن تصعد لطرق بابهما، ولكن أبي أخبرها أنه تحدث حديثًا تحفيزيًّا مع بهيج في طريقهما من المطار وعله ينفذ نصائحه الآن، ثم غمز لأمي وقال دعي العريسين وشأنهما، فقد آلمني رأسي ليلًا ونهارًا بثرثرتك عن تخيلك لأحفادك المستقبليين.

بجح!

وزعت أمي الطعام في أطباقنا، وفي أثناء الطعام انشغلت في تقليب منشورات الفيسبوك.

صاح أبي واعترض على ذلك، ولكني تجاهلته، لم أعد مراهقة حتى يأمرني وينهاني.

أكملت ما أفعله بالبرود والتجاهل أنفسهما حتى رأيت صورة أثارت حفيظتي وتوتري وأخرجتني من فقاعة اللامبالاة التي أحبس نفسي في داخلها كلما زارنا أبي.

صورة الأستاذ وليد الكيلاني، معلم العلوم الذي كان يدرِّس لي وأنا في الصف الخامس الابتدائي.

كان منشور نعي شاركته إحدى زميلاتي من مدرستي الابتدائية، كانت من القلة التي لم ينقطع التواصل بيننا

بعدما انتقلتُ إلى مدرسة أخرى.

أصابتني القشعريرة وشعرت بضيق التنفس وبالوهن.

مات الأستاذ وليد الكيلاني، والجميع يدعو له بالرحمة، ويسألوننا أن ندعو لأهله بالصبر والسلوان.

- ما خطبكِ يا بنيتي؟

التفت لأجد جدتي الجالسة قبالتي تحدق إليَّ بقلق.

تركت هاتفي وأجبتها بصوت واهن:

- لا شيء.

قلبت صحن الشوربة، ولكن الذكريات كلها هاجمتني دفعة واحدة دون هوادة.

زاد خفقان قلبي ورعشة أصابعي الممسكة بالملعقة، وبدأت أهز قدمي بشكل لا إرادي وشعرت بأسناني تصطك ببعضها.

- بتول ما الأمر؟

لم ينتبه أحد لحالتي سوى جدتي، فأجبتها بصوت أقرب إلى الصراخ الحاد:

- لقد مات وليد الكيلاني! مات اليوم!

توقف أمي وأبي عن الأكل وتبادلا النظرات.

لم أتمالك أعصابي؛ ضربت السفرة بعنف لحطت يدي على الكوب الزجاجي فانكسر وجرح سبابتي جرحًا طوليًّا.

شهقت أمي وهمَّت أن تنهض حتى تطمئن على جرحي،

١٣

عيسى

(قبل الجريمة بيوم)

أخذت من ماجد كيس رقائق البطاطس بالجبنة وزجاجة المياه الغازية.

استرخيت في مقعد البين باج الملون، فجلس على المقعد المقابل لي.

قصصت عليه تطور علاقتي بلارا، مقابلاتنا كل صباح للسير معًا بمحاذاة النيل، ثم ركوب السكوتر الكهربائي في طريقنا إلى النادي والقفز في المسبح، ثم تناول الفطور وشرب عصير الليمون بالحليب.

كنا نحب الأطعمة ذاتها من المطاعم نفسها، الموكا الباردة وكعك الشوكولاتة من مقهى «No Deal»، آيس كريم الزبادي بالتوت من «Gelato Amareno»، المعكرونة الروزيه بالدجاج من «O's Pasta»، وبيتزا المارينارا المخصوصة من «Maison Thomas».

ابتسم ماجد قائلًا:

ـ أرى أن شهيتك تحسنت.

ـ نعم، أعتقد أن الأمر مرتبط بها. جلوسها أمامي يفتح شهيتي، حتى في غيابها، بمجرد أن أفكر بها أشعر بالجوع. هل هذا يجعل مني شخصًا مفتونًا أم مَفجوعًا؟

- هذا يجعل منك شخصًا مقبلًا على الحياة. مَن يستمتع بالطعام يستمتع بالدنيا.

- أتفق معك. بالأمس، دخلنا سينما زاوية. هي مولعة بالأفلام الإيطالية، فعلت أكثر الحركات ابتذالًا وأمسكت يدها في أثناء عرض الفيلم، ولكنها وضعت رأسها على كتفي بمنتهى العفوية، كانت تفوح من شعرها رائحة الفانيلا، فغمرني شعور لم أشعر به منذ فترة طويلة، السعادة.

- هذا تقدُّم عظيم يا عيسى.

- أتظن ذلك؟

- بل أنا واثق، للارا تأثير عظيم عليك.

- لأن لديها هذا السحر النادر. إنها تعبر عن نفسها بسلاسة، تربت على كتفي حين تود أن تتعاطف معي، وتعانقني إذا تلمست حزني، وتصفق لي وتلمع عيناها فخرًا إذا أصبت في شيء. لا تتردد في النطق بما يدور في خلدها أو ما يغمر قلبها، وكأنها لا تبالي برد فعل أي شخص تجاه صراحتها ووضوحها. أعني، كيف يكون المرء شفافًا كالزجاج ولا يخاف من أن يكسر بسهولة؟

- هكذا تكون حال كل مَن يتصل بمشاعره ويفهم ذاته واحتياجاته. الوضوح مع النفس يجعلك تصل إلى مرحلة عليا من الصفاء النفسي.

- لم أتعامل في حياتي مع شخص يملك هذا القدر من النضوج العاطفي والتصالح النفسي. أليست باهرة؟

- هي كذلك. التعامل مع شخصية سوية مثل لارا له القدرة على تحسين نفسية المرء.

- نعم ولكني... لن أكذب عليك، في بعض الأحيان أعود إلى البيت وأسمع أخبارًا سيئة فأشعر بالذنب، وأقول لنفسي الناس يعانون ويتعذبون وأنت تأكل الفشار بالكراميل في السينما!

- معاناة الناس ليست ذنبك.

- أعلم. وعلى الرغم من ذلك، لا أنجح في التخلص من هذا الضيق، وكأنني مسؤول عما يحدث للجميع.

- وهل نفسك تستحق منك ذلك؟

- ماذا تعني؟

- الحياة قاسية على الجميع. الظروف لن تكون دائمًا في خدمتك، ستجد الكثير من المطبات في طريقك وستجد أشخاصًا مؤذين سيقسون عليك وعلى من تحبهم بدون مبرر. والآن، هل في رأيك أن رد الفعل المناسب هو أن تقسو على نفسك، وتجلد ذاتك وتحملها فوق طاقتها حتى تنفد قواك، أم أن تحنو على نفسك وتعاضدها حتى تتمكن من النهوض وإيجاد حل عملي لمشكلاتك ومشكلات من حولك؟

- الخيار الثاني بلا شك.

- إذن، اجعل من رضا نفسك مهمتك. ما دمتَ لا تصد من يحتاج إلى مساعدتك أو تتقاعس عن معاونة من تقدر

على معاونته، فلا داعي لتأنيب الضمير. اختر نفسك.

ـ في بعض الأحيان أجد في اختيار نفسي شيئًا من الأنانية.

ـ وأنا أجد في تدمير نفسك شيئًا من الغباء. الأنانية هي أن تعيش لنفسك فقط، ولكن الذكاء هو أن تحافظ على نفسك حتى تتمكن من معاونة الآخرين. هذه مهمتك حتى اللقاء المقبل، أعِد قائمة بالأشياء التي تُسعد عيسى.

ـ مثل ماذا؟

ـ هذا ما يجب أن تحدده أنت بمفردك، فما من شخص أكثر بؤسًا من الذي يجهل ما يسعده.

* * *

اتصلت بي بتول في أثناء دخولي إلى عمارتنا بعدما انتهيت من جلستي مع ماجد، وأخبرتني ألا أبقى في المنزل بمفردي، لأن أبي يعاني نوبة من نوبات غضبه العارمة، وأنه على الأغلب سيصب سخطه عليَّ.

لم تخبرني سبب نوبته هذه المرة، ولكنه صار طقسًا معتادًا كلما أتى أبي إلى بيتنا.

جلست على رصيف عمارتنا لأخطط إلى أين سأتجه، فاتصلت بلارا.

أخبرتني أنها انتهت من تمرين الجمباز، وأنها على وشك السباحة كما تفعل بعد كل تمرين.

اتفقت معها على أن أقابلها هناك، ثم اتصلت بمايكل

لألقاه أيضًا في النادي ويتناول ثلاثتنا العشاء معًا، فأنا لم أره منذ بضعة أيام ولا أريده أن يعتقد أنني انشغلت بلارا ونسيته تمامًا.

هممت أن أنهض لأتجه إلى النادي، ولكن قابلني بيجو في طريق خروجه من العمارة قائلًا:

- ماذا تفعل على الرصيف يا أسد؟

- كنت في طريقي إلى النادي، هل كنت مع أبي؟

- لا، كنت سأتجه لأشتري حلواه المفضلة ثم أزوره. لماذا ستذهب إلى النادي وتترك أباك؟ سيعود إلى دبي بعد يومين.

- إنها طريقتنا في الهرب من نوبات غضبه.

- آه. في الواقع، أنتم عائلة شديدة النكد يا عيسى.

- صدقت يا بيجو، ثم يتساءلون ما الذي أصابني بالاكتئاب!

- حسنًا، فلنهرب معًا من هذه العائلة المشؤومة، فقد سمعت صياح أبيك وأنا أنزل السلم. دعني أوصلك إلى النادي، فهذه الحرارة تجبر المرء على عدم الخروج من المسبح.

- ولكني نسيت ثوب سباحتي في البيت.

- لا بأس، معي ثوب إضافي في السيارة.

* * *

حين قال يحيو إن معه ثوب سباحة إضافيًّا، لم أتخيل أنه سيكون «Speedo» برتقاليًا فاقعًا يأخذ قصة السروال الداخلي الحريمي.

لم أجرؤ حتى على ارتدائه وأنا في غرفة تغيير الملابس.

كان يحيو في الكابينة المجاورة لي يغير ثيابه، ثم سمعته يطرق على بابي ويقول:

- انتهيت؟

خرجت قائلًا:

- لا، بالتأكيد لن ألبس هذا.

كان يلبس ثوب سباحة مطابقًا للذي أعطاه لي، ولكن لونه وردي فاقع.

لطالما كانت أثوابه مثارًا للسخرية بيننا، فقد كانت أوروبية زيادة على اللازم، ولكن والله إذا رآني أبي أمسك هذا الثوب في يدي لقتلني غرقًا.

أعطيته ثوبه، فقال ضاحكًا:

- لا يعجبك اللون؟

- والله لو نزلت الماء وسط الشباب الذين يسبحون وأنا أرتدي هذا، لتحرشوا بي.

- لماذا تتعامل مع بدنك بكل هذا الخزي؟

- أنا لا أشعر بالخزي من جسدي.

- لماذا إذن تقصر شعرك كلما عاد أبوك من السفر؟

- أتجنب المشكلات معه.

- هذا جبن يا عيسى. كيف تكتب منشورات عن حقوق المرأة وحريتها وأنت عاجز حتى عن ارتداء ما يرضيك أو تصفيف شعرك كما يعجبك؟ ينقصك الكثير من الانفتاح قبل أن تبدأ بالحديث عنه.

- لا شك أنني سأتعلم أكثر مع الوقت.

- حتى يحدث ذلك، دع انفتاح المرأة للمرأة، فهن ثرثارات مزعجات يعرفن أخذ حقوقهن من فم السبع، أما نحن، فنحن مغلوبون على أمرنا ومظلومون أكثر منهن. لا نجد من يطالب بحقوقنا، وإذا اشتكى أحدنا وقال إن المجتمع يضغط عليه ويظلمه، نعتوه بـ«المخنث»!

- نعم، لا يعترف المجتمع بصراعاتنا النفسية.

- إذن، كفى خضوعًا له! إن كان ثوب السباحة لا يعجبك فلا بأس، لا ترتده. أما إذا كنت ستتركه لأنك تخشى من تعليقات الناس على مظهرك، فاذهب إلى الطبيب واعمل اختبار ذكورة، فإن خاف الرجل من نظرة المجتمع، ماذا سيترك للنساء؟!

أخذ حقيبته وخرج وتركني وسط أفكاري.

وضعت ثوب السباحة فوق حقوَي ونظرت في المرآة وأنا أتخيل منظري وأنا لا أرتدي شيئًا غيره.

فُتح باب غرفة تغيير الملابس ودخل شابان نافرا العضلات من أعضاء فريق كرة السلة.

لمحا ثوب السباحة في يدي فضحكا، وقالا بعض التعليقات الجنسية البذيئة عني بصوت حرصا على أن يصل إليَّ.

ألقيت ثوب السباحة على جنب في لحظتها. إنها معركة لا تستحق الخوض.

* * *

فضَّلت الجلوس على الشازلونج وسماع الأغاني والعمل على قائمة الأشياء التي تسعدني كما طلب ماجد مني، بينما استمر بهيج في السباحة.

كلما غاص تحت الماء، سمعت تعليقات السباحين من حوله.

انتقدوا الوشوم العجيبة التي تفترش ظهره كله، وسخروا من لون ثوب سباحته وقصته، واستهزأوا بالخواتم الفضية التي تحلي أصابعه.

يسخرون ويتمازحون وفور أن يخرج رأسه من الماء يصمتون.

لا أدري، هل يصمتون خوفًا من عضلات بيجو النافرة التي تجعل أي شخص يفكر مرتين قبل أن يقرر الدخول معه في عراك، أم يصمتون لأنهم يدركون سخافة وتفاهة تعليقاتهم؟!

فرغ بيجو من السباحة وجفف بدنه، ثم جلس بجواري على الشازلونج مع دخول مايكل ولارا.

عرَّفتُ لارا على ييجو فتبادلا التحية، وتجاذبا أطراف الحديث.

استغل مايكل ذلك وهمس إليَّ:

ـ لم تخبرني أن زوج أختك معك.

ـ قابلته مصادفة، لماذا تنزعج كلما رأيته؟

ـ لا أحب صحبته.

ـ حسنًا، سنستأذن منه ونرحل بعدما تفرغ لارا من السباحة.

ضحكت لارا وقالت له:

ـ أنت خفيف الظل يا أونكل.

ـ أونكل!

كررها ييجو مصدومًا:

ـ هل أسير أمامك بعكازين؟

ـ المعذرة، إنها عادة احترام الكبير.

ـ لست كبيرًا يا حلوتي. أنا شاب أكثر منكم جميعًا.

تضاحكا ثم اعتذرت لارا، كي تتجه إلى غرفة تغيير الملابس.

بمجرد أن ابتعدت قال ييجو:

ـ احترام الكبير؟! حمقاء! ولكن استدارة مؤخرتها تشفع لها غباءها.

علقت قائلًا:

ـ ماذا تقول ييجو!

ـ ما خطبك؟

ـ لِمَ هذا التعليق السخيف؟ أتتحرش لفظيًّا بفتاة عمرها نصف عمرك؟

ـ إن كنت أهمس إلى نفسي فهذا لا يعد تحرشًا، ثم ما دخلك أنت؟

ـ ما دخلي؟ أنت زوج أختي، أتغازل غيرها أمامي؟

ـ ليس هذا لب الموضوع، أنت معجب بها؟ أهذه هي الفتاة التي ذهبتَ معها في موعد غرامي؟

ـ حتى وإن لم أكن معجبًا بها، أيجوز أن تحملق إلى أجساد الفتيات؟

ضحك ييجو وسحب سرواله وقميصه من حقيبته ثم ارتداهما وهو يقول:

ـ لقد أحسنت صابرين تربيتك. أنت فتى طيب يا عيسى.

ارتدى حذاءه وهو يقول بابتسامته الودود نفسها:

ـ سأذهب لشراء الشطائر، ماذا ستأكل؟

ـ لست جائعًا.

ـ دعك من العبوس، لم أكن أعرف أنها تخصك يا أسد! سأحضر لكما شطائر شيش طاووق ومياهًا غازية، أم أنك لا تحب الصودا يا مايكل؟ أتفضل الموز باللبن؟

هزَّ مايكل رأسه نفيًا دون تعليق، ثم ضربني بجو على كتفي واتجه إلى الكافيتريا.

همس مايكل:

- بغيض!

- تصرفاته متصابية بعض الشيء ولكنه طيب القلب. هو مدلل دلال الطفل وحيد والديه، ولكنه حنون وصحبته طيبة.

- ليس من الصحي أن تمضي أغلب وقتك مع شخص عمره ضعف عمرك يا عيسى، حتى لو كان زوج أختك.

- لماذا؟

- هكذا، لِمَ تجادلني؟

كنت سأبرر موقفي ثم أدع لمايكل مساحة للتعبير عن وجهة نظره، ولكن لارا اقتربت منا وتركت حقيبتها بجوارنا وسألتنا:

- ألن تسبحا معي؟

أجابها مايكل:

- لديَّ رهاب من حمام السباحة.

- هل تود أن تحاول التخلص منه؟ سنسبح معًا ونحرص على ألا تغرق.

- رهابي ليس من الغرق بل من حمام السباحة نفسه.

- ما الذي يزعجك بالتحديد؟ يمكننا أن...

- قلتُ لا يا لارا!

استعجبنا صياح مايكل. كان متوترًا وتشوب صوته نبرة اختناق.

زفر والتقط حقيبة تمرينه من على الأرض قائلًا:

- آسف يا رفاق، مررت بيوم سخيف.

قالت لارا:

- لا بأس يا مايكل. هل تود الحديث معنا عما يزعجك؟

- ليس الآن، أنا في حاجة إلى النوم، سأقابلكما غدًا.

صافحني وكرر اعتذاره، وأصر على أن يرحل بمفرده، وأن نترك له مساحة للخصوصية.

سألتني لارا وهي تضع غطاء السباحة على رأسها:

- ألديك فكرة عما يصيب مايكل بالكآبة دائمًا؟ كثيرًا ما أكون جالسة معه وفجأة يتمكن منه الكمد وينسحب.

- إنه على هذا الوضع منذ أن توفي والده. لقد أتاه خبر وفاته في أثناء تمرين السباحة، ربما لهذا صار لديه رهاب من المكان.

- ربما! على أي حال، سنمهله ساعة يختلي فيها بنفسه ثم نتصل لنطمئن عليه.

أمسكت يديها الناعمتين الصغيرتين وقلت:

- أحب مقدرتكِ على الاعتناء بالآخرين.

توردت وجنتاها وابتسمت خجلًا وهي تربت على يدي،

ثم قالت:

- ألن تسبح معي؟

- نسيت ثوب سباحتي. أكملي روتينك وسأنتظرك هنا أنا وأونكل بيجو.

ضحكت ثم قالت:

- لن أتأخر.

قفزت في الماء وأخذت تسبح بنشاطها المعهود.

أعدت السماعات إلى أذنَي، فانبعثت منها كلمات أغنية «ليلى»، وانصب انتباهي على قائمة الأشياء التي تسعدني: رائحة لارا، ابتسامة لارا، غمازتا لارا، طريقة نطق لارا لحرف السين، ملمس يد لارا، التفكير في تقبيل لارا.

لو عرضت تلك القائمة على ماجد سيظن أنني مراهق مبتذل يحب أفلام «توايلايت».

احتفظت بتلك القائمة لنفسي، وقررت أن أصنع واحدة أخرى يمكن عرضها على ماجد، ولكني لمحت لارا تقترب مني على عجلة.

نزعت السماعات من أذنَي، ورأيتها تسحب الفوطة وتلف بها بدنها كله، كأنها تكفن نفسها وعلى وجهها ملامح ارتباك وخوف.

- ماذا حدث؟

- لا شيء، المياه باردة.

- المياه باردة في أغسطس؟ ماذا أصابك يا لارا؟ أهناك شيء يؤلمك؟

نظرت إلى حمام السباحة، وجدت الشابين السخيفين اللذين دخلا عليَّ غرفة تغيير الملابس وسخرا من ثوب سباحتي.

كانا ينظران صوبي أنا ولارا، ويضحكان ضحكات مقرفة.

- هل لمساكِ؟

- لم يحدث شيء يا عيسى. دعنا نرحل في هدوء، أمي تنتظرني في البيت.

مالت لتنتشل ملابسها، ولكني رأيت لمعة الدموع تجتاح عينيها.

هذان الحقيران تحرشا بها.

اتجهت صوبهما وصحت:

- اخرجا لي من الماء.

- ولِمَ لا تنزل أنت؟ أم أنك نسيت لباس أمك!

حملت أقرب شازلونج وألقيته صوبهما، فصرخت لارا.

لم يصبهما الكرسي، فخرجا من الماء والغضب يسيطر عليهما.

بداية المشاجرة كانت في صالحي، ألقيتهما بأقرب مقعد بلاستيكي فأصيب أولهما، وتمكنت من لكْم ثانيهما.

كانت خطتي أن أضرب كل واحد منهما على حدة كما في أفلام الأكشن المبتذلة، ولكني نجحت في هذا لبضع ثوانٍ ثم تمكنا من محاصرتي، أحدهما يطوق ذراعي من الخلف والآخر يلكمني.

سدد لكمة إلى عينِي اليسرى ثم اليمنى، فشعرت بالدماء تسيل من حاجبيَ.

تشتتت رؤيتي وشعرت بالدوار، ولكني لم أفقد وعيي ولا قدرتي على السباب. لا شك أنني تغلبت عليهما في مهارة الشتم.

معظم الأعضاء الموجودين في منطقة حمام السباحة كانوا في سن المعاش، فلم يتدخلوا بدنيًّا. اكتفوا بالصياح ونهر الشابين عن ضربي، بينما سمعت صريخ لارا ثم لمحتها تحاول دفعهما بعيدًا عني، وتطلب من أحد الأعضاء استدعاء أفراد أمن النادي.

بعد تلقي الكثير من اللكمات والركلات توقفا فجأة عن ضربي.

هل أشفقا عليَّ إلى هذا الحد؟

سمعت صوت سقوط في الماء، ثم تركني الشاب الذي يطوق ذراعي.

تمكنت من مسح الدماء من على عينَي والرؤية بوضوح، كان يحيى هو منقذي البطل.

أوسع الشاب الأول ضربًا ثم حمله وألقاه في حمام

السباحة، بينما تغلب على الثاني وطرحه على الأرض، وسدد إليه لكمات ملاكم محترف.

الآن، تأكدت من أن عضلاته ليست زينة، وأن ثوب سباحته الوردي لا ينقصه قوة ومهابة.

ركضت لارا صوبي وأخذت تتفقد وجهي وتربت على ظهري وتناولني الماء، ولكنها عجزت عن إيقاف نزيف حاجبي.

نعم، كنت فخورًا بعناقها لي وخوفها عليَّ وبأنني اتخذت موقفًا.

حتى لو كان الحقيران أوسعاني ضربًا، إلا أنني لم أكرر ما فعلته حين صفع أحد زملائنا مؤخرة فرح.

اليوم، أخذت موقفًا وتصديت لمتحرشين ضاريين.

اليوم، كنت رجلًا.

١٤

عيسى

(قبل الجريمة بيوم)

حصلت على وسام النصر، ست غرز في حاجبي الأيسر وأربع في الأيمن.

اللعنة على الخواتم الفضية التي تشج الوجه عندما نتلقى لكمة من يد مرتديها!

كنت ما زلت تحت تأثير المخدر الموضعي، ثم أخذت المضاد الحيوي وبعض الأدوية الأخرى التي ابتاعها لي ييجو بأمر من الطبيب.

شعرت بالدوار وبالفخر في اللحظة نفسها، فقد رأيت ابتسامة لارا لي.

نظراتها إليَّ بعد المشاجرة، وهلعها عليَّ وهي تتجه معي وييجو إلى المشفى المجاور للنادي ثم إعطاؤها الدواء لي، جعلتني أدرك أن الأمر يستحق عشر غرز، فأنا لم أشعر يومًا بهذا القدر من الثقة في النفس.

لطالما تجنبت المشاجرات البدنية.

كانت أمي ترهبني وتقول إن الصبية يسيرون بمطاوٍ قد يمزقون بها وجهي الوسيم أو يطعنونني فيصيبون قلبي فأموت على الفور، ثم تجعلني أقسم لها كل يوم إنني لن أتورط في أي شجار عنيف.

كنت ابن أمي الطيب. لم أتورط في معركة من أي نوع، ولكني لو كنت أعرف أن الشجار من أجل لارا سيجعلها تمسك يدي وتتحسس شعري وتتغنى ببطولتي - ولا أعرف من أين أتت بترهات أنني أوسعت الشابين ضربًا وتغلبت عليهما بمفردي - لكنت تدربت على الشجار منذ سنوات طويلة.

خرجنا من عند الطبيب، وأصر بيجو على أن يوصل لارا إلى بيتها.

فتح لها باب السيارة الخلفي، وأشار إليها بالجلوس كسيد نبيل.

اقتربت لأجلس على المقعد المجاور لبيجو، فأشار إليَّ برأسه أن أجلس بجوارها ثم غمزني.

شعرت بأن الأمر مريب، وسأبدو سخيفًا إن تركت المقعد الأمامي وجلست في الخلف.

هزرت رأسي نفيًا، فقال بيجو:

- لا يجوز أن تبقى جالسًا بزاوية ٩٠ درجة يا عيسى. يجب أن تنام على الأريكة حتى لا تصاب بدوار الحركة وتنفتح غرز جرحك.

- ما العلاقة بين دوار الحركة وغرزي؟!

- أستعجب كيف تخصصت في المواد العلمية وأنت حمار إلى هذه الدرجة! هل سيزعجكِ يا لارا لو تسطح عيسى على الأريكة بجوارك؟

- بالطبع لا.

فتحت لي الباب، فجلست بجوارها، ثم أغلق ييجو الباب وجلس على مقعد السائق.

وجدت لارا تجذب رأسي على مهل وتضعه على فخذها ثم تتحسس شعري.

الآن فهمت مقصد ييجو وما العلاقة بين الأريكة الخلفية وغرزي.

البذيء اللعين! أحبه!

في الواقع، لم تكن عندي نية لفعل أي شيء سوى الاستمتاع بلحظة الحنان الأمومي هذه.

كانت أوصالي كلها مخدرة وقد تمكنت مني هلاوس المضاد الحيوي، ولم أعد أشعر برأسي إلى درجة أنه بدا لي كما البالون، يطير بعيدًا في الهواء.

كان لحركة السيارة تأثير هدهدة الأم لرضيعها في المهد، ومع مداعبة لارا لشعري وفروة رأسي، نمت.

* * *

- عيسى! عيسى!

فتحت عينَي لأجد لارا تبتسم لي، وييجو يضحك ضحكة ساخرة.

استيقظت ورأسي يؤلمني بشدة، وما زال الخدر مسيطراً على أطرافي.

نهضت متظاهرًا بأنني كنت مستيقظًا من الأصل، فقلت:

ـ نعم، نعم لقد وصلنا.

علقت لارا وهي تضحك:

ـ نعم. أود أن أشكركما وأعتذر إليكما مجددًا، لقد أوقعتكما في مشكلة و...

ـ كلَّا! لا! على الإطلاق! كانا في حاجة إلى التأديب. لا ذنب لكِ.

ـ كانا في حاجة إلى التأديب وأنت أدبتهما بالفعل يا عيسى. سأراك غدًا؟

ـ بالطبع.

ـ حسنًا، إلى اللقاء.

التفتت إلى يجو قائلة:

ـ شكرًا يا يجو.

فتحت باب السيارة، بينما أجابها يجو:

ـ العفو يا حلوة.

همس إليَّ:

ـ لا تكن متنطعًا! انزل وأوصلها حتى باب العمارة.

ـ نعم، حسنًا.

نزلت خلفها وسرت معها حتى دخلنا العمارة، وكلانا

يبتسم للآخر بإحراج ساذج.

ضغطتْ على زر المصعد فكان ينزل من الدور الثاني عشر.

بقينا نتبادل النظرات والابتسامات البلهاء حتى قالت:

- حسنًا، لا أعرف كيف يمكنني أن أعبر عما أشعر به الآن! أنا فخور بك، أنا ممتنة لك، أنا سعيدة لأنك كنتَ معي اليوم، لأنني لو كنت بمفردي لربما بقي الأمر يؤرقني لأيام، أو ربما أصابتني الصدمة وبقيت في حالة إنكار. لم يتحرش بي أحد من قبل، كنت أظن الأمر يحدث بالمواصلات العامة فحسب. ولكن، على أي حال، أنا سعيدة لأنك كنت موجودًا وأنك لم تلمني بل ودافعت عني و...

- أنا أحبك يا لارا.

اندفعت الكلمات من فمي دون تفكير. أظنه مفعول المخدر الموضعي والمضاد الحيوي، لقد بسطا سلطانهما على عقلي وحررا قلبي.

ابتسمت ابتسامة واسعة، ومالت إليَّ هامسة:

- أتحبني؟

- نعم، أحبك جدًّا.

اقتربت منها أكثر حتى صرت أشم رائحة ملمع شفتيها بوضوح.

كان برائحة التوت البري، الرائحة الأقرب إلى قلبي.

هل كانت شفتاها يانعتين وممتلئتين ولامعتين هكذا طوال الوقت؟

انحنيت حتى أكون في طولها واقتربت منها، ثم تذكرت تعاليم بتول لي فيما يتعلق بالتعامل مع الجنس الآخر.

همست إلى لارا قبل أن أُقبِل على أي فعل أحمق.

- هل يمكن أن أُقبلك؟

ضحكت ضحكة خافتة ثم هزت رأسها بالموافقة، وما كادت شفاهنا تلتقي حتى رنَّ المصعد رنته الإلكترونية الحادة السخيفة، فانتفضت لارا وارتبكت وتراجعت إلى الخلف متخلية عن الفكرة تمامًا.

فُتح باب المصعد وخرجت منه سيدة مسنة ألقت التحية على لارا، ونظرت إليَّ بارتياب.

فتحت السيدة باب المصعد وانتظرت حتى دخلت لارا، ولم ترحل إلى أن اضطرت لارا إلى أن تلوح لي بالوداع، وتؤكد أننا سنلتقي غدًا، ثم أغلقت باب المصعد.

صعد المصعد وما زالت السيدة تنتظر خروجي من العمارة، ففعلتُ.

دسست يدي في جيبي، وسرت في الشارع أغني:

ساموراي رحال

وقالولي محال

دي الدنيا في حال

وحبيبتي في حال

وصلت إلى سيارة يجو، ثم جلست في المقعد المجاور له.

تأمل الابتسامة البلهاء المرسومة على وجهي، ثم قال وهو يغمزني:

- ها؟

- ماذا؟

- قبَّلتها؟

- كلَّا.

- أتخاف أن أحسدك يا أبله؟

- إنني أصدقك القول، لم أُقبِّلها.

- أي خيبة هذه؟ أتركك تجلس بجوارها فتنام كالرضيع، ثم أدفعك إلى الاختلاء بها في العمارة ولا تقبلها؟ هل لديك مشكلة عضوية يا أسد؟

ضحكت حتى شعرت بالألم في عظامي التي ركلها المتحرشان اللعينان عظمة عظمة.

- لا أعاني أي مشكلات يا يجو، أنا أحبها.

- تحبها؟ هذه ليست مشكلة، بل مصيبة سوداء على دماغك، ضاع الولد!

أدار المحرك وأكمل طريقه في الاتجاه إلى بيتنا وهو يقول:

- يجب أن تغير ثيابك عندي أولًا، إذا دخلت على أمك ببقع الدم وملابسك الممزقة هذه، ستفقد عقلها.

* * *

في أثناء صعود المصعد إلى شقة مريم وييجو، سمعت والدي يصيح مجددًا، ولكن تلك المرة كانت أمي ترد عليه بالصوت العالي نفسه.

كانت المرة الأولى التي أسمع فيها صوتًا لأمي.

دخلنا الشقة. كانت الأنوار كلها مطفأة ولا صوت لمريم، نخمنت أنها إما في شقتنا تصلح بين أمي وأبي، وإما عند صديقتها سما.

وددت أن أسأل ييجو عنها، ولكني دخلت الحمام القريب من غرفة الاستوديو، لأقضي حاجتي ثم نظرت إلى انعكاسي في المرآة.

أكانت لارا مستعدة لتقبيل هذه السحنة؟

كنت في حالة يرثى لها، عيني اليسرى شبه مغلقة، واليمنى حمراء، وكل شعرة من شعري في اتجاه، وشفتاي مشقوقتان، ومنظر الغرز في حاجبي مقزز، وثيابي لا حول لها ولا قوة.

لا شك أنها تحبني بالفعل.

خرجت من الحمام فوجدت ييجو في غرفة الاستوديو يناديني، وقد ترك لي ثيابًا نظيفة على طاولة تتوسطها مبخرة أنيقة يحترق بداخلها بخور له رائحة عجيبة.

خلعت حذائي ثم اتجهت للجلوس معه على المقعد المقابل للطاولة التي يضع عليها معدات البلاي ستيشن وبعض

المقرمشات.

كان ظهره لي وهو منشغل بتوصيل الأسلاك ببعضها، ويَخرج من فمه دخان ثقيل وفي يده الجعة.

أخذ ذراعَي البلاي ستيشن وأعطاني واحدة وهو يقول:

- فلنلعب حتى تفرغ بطارية أبيك ويتوقف عن الصياح، ثم تعود إلى شقتك. يمكن أن تبيت هنا إذا أردت.

حين واجهني في طريقه للجلوس على المقعد المجاور لي، انتبهت إلى أنه يدخن سيجارة حشيش، فنظرت إليه مستعجبًا، ولكنني لم أنطق بأي تعليق.

انتبه لنظراتي فقال:

- لك عينا مريم وبلاهة نظراتهما.

- لم أكن أعلم أنك تدخن الحشيش.

- ما زلتُ غير معتاد عدم قانونية الحشيش في مصر، الأمر مقنن في كندا.

- نعم، أعرف.

- هل يزعجك الأمر؟

- لا، هذا بيتك. أنت حر على أي حال.

- حبيبي التنويري الصغير.

ضحك ساخرًا:

- هل تود أن تجرب؟

- كلَّا!

- ولا حتى الجعة؟

- لا.

سعلت من رائحة البخور المقيتة وتشوشت رؤيتي قليلًا.

ما زلت أشعر بالدوار والتعب، ولكن تفاصيل لارا كانت توقظ حواسي، إلى درجة أن يجو سدد هدفًا في مرمى فريقي ولم أُبالِ.

نظر إليَّ، ثم ضحك قائلًا:

- بلاهة الشباب!

- ماذا! ألا تعرف حلاوة الحب؟

- بل أعرف مرارة الزواج. يا حبيبي، أنت واهم. أي حب هذا الذي تشعر به بسبب تسكعك مع فتاة لأسبوعين!

- أنت ومريم تزوجتما سريعًا وبعد خِطبة قصيرة.

- ولكن أختك تحبني منذ أن كانت تلميذة بضفائر.

- ألم تبادلها المشاعر نفسها؟

- لا تكن أحمق يا عيسى.

- هل الحب حماقة؟

أوقف اللعبة والتفت إليَّ قائلًا:

- ينقصك الكثير من الخبرة يا فتى. اسمع، أمي كانت

تصارع السرطان. رفضت العلاج الكيماوي والجراحة، فعرض عليها الطبيب تجربة «Placebo»، قرص وهمي تأخذه كل يوم. الطبيب يقنعها أنه علاج سحري فعال، ولكنه في الحقيقة ليس سوى فيتامين. إلا أن نظرية الأطباء تفترض أن عقل المريض لو اقتنع بأنه يأخذ علاجًا شافيًا بحق، ستقوى مناعته وتتحسن حالته. نتيجة التجربة أنني دفنت أمي بعد شهور من المواظبة على هذا القرص الوهمي. هذا هو الحب، قرص وهمي لا فائدة منه ومع ذلك نبتلعه بكامل إرادتنا حتى نتحمل نكد النساء وسخافة الزواج ومتطلبات الأطفال.

- الزواج سخيف؟

- ألم تسمع صياح والديك؟

- هذا لأنهما من جيل قديم، جيلنا أكثر ذكاءً وتفتحًا.

- إن وضعتَ قمامتك في كيس رقمي ذكي، ستظل قمامة.

- أنت تبالغ! كيف لاجتماع رجل وامرأة متحابين ومتفاهمين أن يكون بهذا السوء؟

ضحك بقوة حتى كادت تسقط سيجارة الحشيش من بين شفتيه.

ارتشف ما بقي من الجعة، ثم قال:

- أي شيء تشترك فيه مع امرأة هو شيء سخيف يدعو للنكد والبؤس، وسيبوء بالفشل لا محالة.

- لِمَ تكره النساء إلى هذا الحد يا يحو؟

- هأنتذا مجددًا تنطلق مدافعًا عن النساء ولا تبالي ببني جنسك.

- لا أدافع عنهن. أود أن أستفهم منك سبب مقتك للنساء فحسب. أعني، لماذا تزوجت مريم إن كنت تكره الزواج؟

- لأن الزواج ضروري لمن هم في سني، مثله مثل التعليم المدرسي والجامعي والعمل. إذا اقترب عمر الرجل من الأربعين دون زواج، سيبحث له المجتمع عن مسمى حقير؛ هذا الوسيم ابن الأثرياء لم يتزوج لأنه بخيل، لأنه ضعيف جنسيًّا، لأنه مثلي.

- منذ متى وأنت تبالي بمسميات المجتمع؟

ضحك وأخمد سيجارته، ثم نهض لأخذ زجاجة جعة أخرى وهو يسب ويلعن في الطريق.

كان يلعن أباه ووالدته، ثم أخذ يشتم شخصًا يدعى «فريدريك»، وعاد للجلوس بجواري، فسألته:

- مَن فريدريك؟

- شخص يشبهك كثيرًا، وكأنك توأمه، ولكنه يكبرك ببضع سنوات، كان عمره عشرين عامًا. اللعين ابن العاهرة.

لم أعد أحتمل رائحة البخور فسعلت، ثم قلت:

- أي نوع من البخور هذا؟ رائحته بغيضة.

- ليس بخورًا. إنه حشيش، رائحته تهدئ أعصابي قبل النوم.

- حشيش في البخور؟

هز ييجو رأسه وضحك بقوة فانتقلت إليَّ عدوى ضحكه، وأخذت أقهقه مثله حتى دمعت عيناي.

ضربني على فخذي، وقال:

- لارا هذه محظوظة، أوقعت فتى عبقريًّا وحساسًا ووسيمًا مثلك في شباكها.

- نعم، محظوظة لأنها تحب بائسًا لا يجيد العراك.

ضحكت ثانية فقال:

- ولكني لا أفهم سبب عدم انجذابك إليها جنسيًّا.

- أخبرني يا ييجو، بما أنك خبير، هل الجنس بالروعة التي يظنها الجميع؟

- ما زلتَ بِكرًا، يا ابن أمك؟

- لا تسخر مني، فقط أجبني.

- حسنًا، الجنس عظيم إذا مارسته مع الشخص الصحيح. لماذا لم تُقبِّل لارا؟ ألا تعجبك؟

- المصعد.

- أي مصعد؟ صارحني، هل أثرت عليك مسلسلات نتفليكس يا أسد، وصرت مثليًّا؟ ألهذا تقضي يومك كله مع مايكل؟

- معاذ الله.

ضحكنا مجددًا، فتجرع ما بقي من الجعة، وألقاها بعيدًا،

وقال مبتسمًا:

- لِمَ لا تثبت لي؟

لا أدري ما الذي صار بالضبط ولكن فجأة، وجدت يحيو يقترب مني أكثر مما ينبغي ويمسك وجهي بقوة ويقرب فمه من فمي.

حاول يحيو تقبيلي!

لا أعرف إن كان يفعل هذا حقًّا، أم أنني وقعت تحت تأثير الحشيش المحترق في المبخرة ودخان سجائره المحشوة الذي استنشقته، أم هذا من صنع هذيان المخدر والمضاد الحيوي وفرط الضرب؟

انتفضت قبل أن يُقبلني وحاولت دفعه، ولكنه كان متشبثًا بي بضراوة، فصرخت فيه وأرجعت ظهري في المقعد قدر المستطاع، حتى انكسر الكرسي وانقلبت على ظهري وهو فوقي.

تفاجأ من سقوطنا، فتمكنت من التملص منه والهروب نحو باب الغرفة التي لا أعلم متى أوصدها بالمفتاح بعد دخولي.

جذبني من ذراعي وهو يقول:

- عيسى! انتظر، انتظر.

انتشل المفتاح من الباب ووضعه في جيب سرواله.

دفعته بكل قوتي وأنا أصيح فيه:

- هل فقدتَ عقلك يا رجل؟

- آسف، آسف. فقط أمهلني حتى أشرح لك.

- تشرح ماذا؟ إنك كنتَ تريد أن... ماذا كنت تريد؟ أتظن أنني...

- لم أكن أقصد. إنه مفعول الحشيش والخمر، فقط انتظر، لا تخرج من الغرفة قبل أن تفهم. لا أريد أن أؤذيك أو أجبرك على شيء، لن أُكرِهك على أي شيء. يا إلهي، التاريخ يعيد نفسه!

- أي تاريخ؟! أعطني المفتاح! أخرجني من هذه الغرفة!

- فقط اسمعني، أنا...

- أنت ماذا؟ مِثلي؟

- حسنًا، وماذا في ذلك؟ هل تعاني رهاب المثليين وكأننا في العصور الوسطى؟

- يا رجل أنت تحاول الاعتداء عليَّ، لقد حاولتَ تقبيلي!

- وما العيب في ذلك؟ أنت حاولت تقبيل لارا لأنك معجب بها، أنا أيضًا معجب بك.

- معجب بي؟ هذه ليست ميولي، أنا لست...

- أنت لا تعرف هذا بعد. أنت تسير على ضبط مصنع المجتمع لإعداداتك. لن تعلم ميولك علم اليقين حتى تجرب الأمر. كنت مثلك، أظن أنني أحب الفتيات حتى جربت الأمر مع صديق أبي، هنا، في نفس الغرفة، واكتشفت أن هذه هي ميولي وليس ما كنت أوهم نفسي به لمجرد أن أسعد والدي وآتي له بأحفاد يحفظون اسمه. هذه هي

فطرتي الحقيقية.

ـ بأي هراء تنطق!

ـ أرجوك يا عيسى، لا تكن مثل هؤلاء الهَمَج. لا تقسُ عليَّ، أنت تعجبني. أنا...

ـ أنت مثير للاشمئزاز، يا بهيج! أنت مريض!

ـ لماذا قلتَ هذه الكلمة يا عيسى؟ هذه الكلمة تذكرني بأبي وأنا أمقت ذكراه. كانت نيتي صافية تجاهك ولكنك أخطأتَ خطأً فادحًا، يا عيسى.

ـ أخرجني! قلت لك أخرجني!

حدث الأمر سريعًا.

وقف أمامي وأمسك رأسي ورطمه بالباب عدة مرات وهو يصيح:

ـ كنت سأعاملك بلين، ولكني سأريك كيف يتصرف المرضى!

شعرت بالدوار الشديد وتشوشت رؤيتي بعدما رطمني بالباب، ولكني تمكنت من لكم فكه ودفعه عني.

نزفت شفتاه فمسحهما، وقال:

ـ أتحب اللعب بخشونة يا أسد؟

جذبني من شعري من الخلف، فتعسر عليَّ أن أسدد إليه أي لكمة.

رطم رأسي بالطاولة الخشبية التي يضع فوقها حاسوبه



المحمول، فشعرت بغرز جروحي كلها تتفتح والدم يسيل على عينَي، ثم سقط حاسوبه بجواري.

صرخت، ولكن غلبني الدوار وهَويت على ركبتَي.

ركل صدري فسقطت على ظهري، وشعرت به يعتليني ويمسك برسغَي ويثبت كفَّي بركبتيه على الأرض.

سدد إليَّ بضع لكمات متتابعة، فملأ الدم فمي وفاض من أنفي.

لم ينقطع صراخي. لسببٍ ما كنت متيقنًا من أن مريم أو بتول أو جدتي أو أي شخص سيفتح الباب وينقذني.

يستحيل أن يحدث هذا، ليس لي، الشباب ينقذون الفتيات من الاعتداء، لا يتعرضون هم له!

رطم رأسي بالأرض عدة مرات ثم انتشل حاسوبه المحمول من جواري وصفعني به بقوة، يمينًا ويسارًا.

مرة، فالثانية، فالثالثة.

طنَّت أذناي حتى انقطع صراخي وخفتت حواسي كلها.

تباطأت أنفاسي، وماجت الأرض من تحتي.

شعرت به ينهض عني، وسمعت صوت سحاب بنطاله.

قلبني على بطني دون مقاومة تُذكر، ثم شعرت به يخلع عني سروالي.

سمعت أنيني الخافت، ثم تخلت عني أعصابي، ولم تعد تستقبل أي إشارة من إشارات مخي كي تقاوم، حتى

أشفق عقلي لحالي، وقرر أن يتوقف عن العمل.

لم أعد أشعر بأي شيء.

فقدتُ الوعي تمامًا.

المرحلة الخامسة

الإنكار

١٥

عيسى

(قبل الجريمة بيوم)

كان كابوسًا ساديًّا وبغيضًا.

هل هناك شخص سوي يرى كابوسًا عن زوج أخته يهتك عرضه في الشقة التي أثثتها أمه قطعة قطعة؟

كان كابوسًا، بالتأكيد.

الفتيات يتعلمن المحافظة على أنفسهن وأن يخبرن أمهاتهن إذا لمسهن غريب، أما الفتية فلا أحد يخبرهم أن هناك احتمالية من الأساس أن يتعرضوا للتحرش الجنسي.

فتى ضحية اغتصاب؟ هذا درب من العبث!

كان كابوسًا، نعم. مجرد كابوس سخيف جثم على صدري كجاثوم كافر لا أكثر.

ولكنْ، إذا كان مجرد كابوس ووهم وأثر من الآثار الجانبية للأدوية التي تناولتها، فلماذا أشعر بألم ضارٍ ينهش بدني كله؟

لماذا أستعيد وعيي لأجد نفسي ملقى أرضًا على بطني بغرفة استوديو يجو في شقة مريم؟



لماذا أسمعه يغلق سحابه وأشعر بسقوط نسمات مكيف الهواء الباردة على مؤخرتي العارية؟

سمعت خشخشة مفاتيحه تدور في قفل باب الغرفة.

وددت أن أنهض وأستغل فرصة أن الباب يُفتح كي أهرب، ولكن ما زال عقلي يعافر لاستعادة مقدرته على التواصل مع سائر أعضائي.

فتحت عينَي لوهلة، كانت رؤيتي ضبابية فلمحتُ بهيج يقف بجواري تفوح منه رائحة الجعة والحشيش والعرق، فأغلقت عينَي مجددًا. لا أتحمل رؤيته.

مال إليَّ قائلًا:

- اخرج من بيتي، أيها المريض المقزز!

بصق على وجهي ثم ركلني، فزاد أنيني المكتوم، وخرج من الغرفة وأغلق الباب خلفه دون أن يوصده بالمفتاح.

استعادت أطرافي حركتها جزئيًّا فتمكنت من فتح عينَي والرؤية بشكل أفضل، ثم جاهدت بكل ما أملك من قوة كي أنهض عن الأرض الدبقة المقززة.

رفعت سروالي الداخلي لأستر عورتي، واستندت إلى الطاولة للحظة كي أستعيد توازني.

هيأت نفسي للخروج من الغرفة، فصرخت عظامي ألمًا مع كل خطوة آخذها صوب الباب، والدم يتقطر من جروحي العديدة لينزل على صدري.

بعد محاولات كثيرة، تمكنت أخيرًا من تمالك أعصابي

لفتح المقبض والخروج.

سمعت الماء ينزل من صنبور الحمام المجاور للغرفة، وتردد صدى صوت بهيج وهو يصفر ويغني بمزاج رائق بالداخل.

استندت إلى الحائط فتركت أصابعي عليه بقعًا من الدماء، حتى وصلت إلى باب الشقة وخرجت.

كنت أستريح على حائط الدرج بعد كل سلمتين أنزلهما وأنا ألهث كمسن خذلته رئتاه، حتى وصلت إلى باب شقتنا.

وقفت عند الباب ولم أسمع صياح والدَي المعتاد، انتهيا من الشجار أو ربما قتل أحدهما الآخر.

لم أدرِ أين مفاتيحي! لم أكن أملك الطاقة للبحث عنها، فاضطررت إلى طرق الباب.

بدا زر الجرس شديد الثقل حتى استجاب أخيرًا لدعستي ورنَّ.

لا أعلم كم مر من الوقت حتى فتحت لي أمي.

شهقت ولطمت وجنتيها بمجرد أن رأت هيئتي، هل كان مظهري مفزعًا إلى هذه الدرجة؟

ظلت تنظر إلى نصفي السفلي، فأدركت أنني نسيت ارتداء بنطالي قبل أن أعود إلى شقتنا، وأعتقد أن سروالي الداخلي تمزق وتبقع، فأنا أشعر ببقعة دبقة عند مؤخرتي.

وضعت يدها على فمها وظلت على تلك الوضعية دون كلام، فدخلتُ الشقة.

أغلقت الباب واعترضت طريقي وهي تسألني بنبرة مرتعشة:

- ماذا حدث؟ مَن؟

لا أعلم إن كانت حنجرتي ما زالت تعمل، ولكني عافرت حتى سمعت صوتي يقول:

- بهيج... لقد ضربني. أفقدني وعيي، أفقدني وعيي حتى...

وضعت يدها على فمي.

أمي أخرستني قبل أن أنطق لها بما حدث لي.

بكت ثم همست إليَّ:

- لقد ضربك. نعم، ضربك. سأجعل أباك يكسر رأسه لأنه ضربك، حتى لو كان زوج أختك وفي مقام شقيقك الكبير، لا يحق له أن يضربك. صحيح؟ بهيج ضربك فحسب يا عيسى؟ هذا كل ما حدث. أليس كذلك يا حبيبي؟

لا أعرف إن كان ما نزل من عينيَ دموعًا أم المزيد من الدم من جرح حاجبي!

أخذت أهز رأسي ثم أزحت يد أمي عن فمي، فشفتاي تؤلمانني بما يكفي.

همست إليها:

- نعم. ضربني، ضربني. لم يحدث شيء.



- أحسنت يا حبيبي. تعالَ يا صغيري، سأحممك وآخذك إلى الطبيب لمداواة جراحك.

وضعت يدها على كتفي فامتعضتُ وتراجعت. لا أطيق لمستها.

كنت سأتجه إلى الحمام لأغسل وجهي من الدماء، ولكني رأيت أبي يقف أمامي وأمام أمي.

تأمل هيئتي، ثم صاح فيَّ:

- ماذا حدث؟ مع مَن تشاجرت؟

وقفت أمي بينه وبيني وقالت:

- لا شيء يا منتصر، أنت تعلم الصبية في هذا العمر دائمي الشجار.

- دائمي الشجار؟ أي شجار هذا الذي يجعل الصبي يفقد بنطاله ويتمزق لباسه الداخلي؟ هذه ليست هيئة شخص ضُرِب فحسب.

جذبني ونظر إليَّ من الخلف ثم صرخ فيَّ:

- ما هذه البقع؟ إياك والنطق بغير الحقيقة يا ابن صابرين؟

ارتعش بدني كله وأجبته بصوت واهن:

- حاولت أن أقاومه، رفضت، فقدت وعيي، لقد ضربني.

- ضربك؟ لو كنت رجلًا حقًّا لما طاوعته حتى آخر نفس فيك.

قالت أمي:

ـ لم يطاوعه، ألا ترى ما أصاب وجهه؟ لقد أجبره على...

ـ كان من الأجدر به أن يتركه يقتله دون أن يطأه. ولكنني أراه أمامي حيًّا يُرزق وينتظر مني تصديق أنه فعل ما بوسعه لحماية نفسه! مَن الذي فعل هذا بك؟ انطق!

أخذت أخطرف وأكرر الكلمة بشكل هستيري:

ـ ظلم! ظلم! ظلم!

ـ أنا ظالم يا فاجر!

صفعني، ففقدت توازني وسقطت وأنا أصرخ:

ـ لا تلمسني!

حالت أمي بيننا ورأيت الشرر يتطاير من عينَي أبي وهو يحاول أن يجذبني من شعري ويقول:

ـ لو لم تكن تطيل شعرك وترتدي تلك القمصان الحريمي وتبكي كالنساء كل ليلة لما ظن الناس أنك لوطي!

ـ لا تلمسني!

صاحت أمي:

ـ توقف يا منتصر. ابنك ضحية! لقد اغتصب.

ـ أي اغتصاب، يا غبية؟ الاغتصاب للحريم وليس للرجال!

ـ ابنك قاصر وليس رجلًا. عمره سبعة عشر!

- بل رجل، والرجال لا يُكرهون على الجنس مثلكن يا ناقصة العقل والدين أنتِ! الرجال يضاجعون ابنك وأنتِ غافلة عنه. لا تبالين بغير طواجن المسقعة والملوخية!

حاول ضربي مجددًا، ولكن أمي دفعته بقوتها، فتملصتُ منه وزحفت على الأرض لأبعد ما يمكن حتى ركضت إلى غرفة جدتي.

أوصدت الباب عليَّ بالقفل الداخلي.

لم يكن هناك أحد بالغرفة سوى كلب بتول نائم في فراش جدتي كعادته.

انتفض الكلب على صراخ أبي الذي ظل ينعتني بأقذع الألفاظ التي تنقص من ذكورتي ورجولتي.

حاولت أن أكتم أذنَي ولكني كنت أرتجف بعنف، فلم أتمكن من منع الصوت عني تمامًا.

سمعته يضرب باب الغرفة التي أختبئ فيها ويحاول فتحه.

اتجهت على الفور إلى دولاب جدتي، وأخرجت ثيابها المرصوصة في أرضيته، حتى وجدت حقيبتها القديمة الضخمة.

أخرجت من الحقيبة ألبوم صور زفافها من جدي شرف الدين وألبوم صورها مع فدائيات السويس وقصاقيص من الصحف عن بسالتهن وخبر العبور ومجد الرجال وبأس النساء.

أسفل هذه الذكريات البائدة، وجدت مسدسها وبندقيتها.

أخذت المسدس ثم جلست على طرف الفراش، وأنا أشعر بألم مرير.

كانت تقابلني صورة زفاف جدّي تجاورهما صورة أخرى صغيرة مقصوصة من جريدة، جدي شرف الدين يرتدي بدلة عسكرية ويحمل رشاشًا، تجاوره جدتي بسروال وبلوزة وغرتها السوداء فوق جبينها وشعرها مقصوص جرسون وتحمل بندقيتها التي ما زالت تحتفظ بها.

لم ألقَ جدي من قبل، ولكن لسبب ما، شعرت بأنه لو كان حيًّا لخلصني من هذه المصيبة.

لم أجد دموعًا أذرفها، رفعت المسدس إلى رأسي فحسب.

راودني هذا السيناريو كثيرًا منذ أن انتحرت فرح وابتلعني حوت الاكتئاب.

تصورت نفسي مرارًا وتكرارًا، آخذ مسدس جدتي وأطلق الرصاص على رأسي حتى أتخلص من بؤسي.

بهيج على حق، لست صبارة حتى أتمكن من النجاة من ضراوة هذه الحياة القاسية. لم يخلق الله لي جلدًا غليظًا يقيني به من غدر نغزات البشر.

أخذت نَفَسًا عميقًا، وأغمضت عينَي.

الأمر بسيط، أضغط على الزناد، أموت.

شعرت بشيء يخربشني وهو يجذب ذراعي التي تحمل المسدس.

فتحت عينَي فوجدت الكلب، يتشبث بذراعي ويجذبها نحوه.

لم يهتم هذا الكلب لوجودي في أي لحظة من قبل، فما له الآن يتسلل إلى حجري ويقف بقامتيه الخلفيتين على فخذي ثم يلقي برأسه الزغب على صدري، ويستند إليَّ بقامتيه الأماميتين وكأنه يحضنني؟

شعرت بأنفاسه الحارة على عنقي وهو يعانقني.

تركت المسدس.

فشلت في الانتحار تمامًا كما فشلت في الفرار من الاكتئاب، وتمامًا كما فشلت في حماية نفسي من بهيج.

حاوطت الكلب بذراعَي وأخذت أبكي وأرتعش وأهتز في حضنه، ودموع القهر تغلبني، فقبَّل وجهي الدامي بطريقته.

زوج أختي انتهكني، فأخرستني أمي وعنفني أبي.

لم يرأف والداي لحالي، ولم يحنُوَا عليَّ.

لم أتلقَّ معاملة إنسانية إلا من كلبي.

١٦

بتول

(قبل الجريمة بيوم)

قُدت السيارة دون وجهة محددة.

كنت هائمة على وجهي، بينما لم تتوقف جدتي عن سب والدَي ونعتهما بأسوأ الألفاظ، لأنهما فرطا في حقي، وظلت تؤكد أنه لو كان جدي شرف الدين ما زال حيًّا لما سمح بهذه المهزلة المشينة.

انتهت ملحمة السباب، ثم وجدتها تضرب كتفي وتقول:

- كيف لم تخبريني من قبل، كنت لأقتص لكِ على الفور؟

- لم أخبر أحدًا، أخواي أنفسهما لا يعلمان. حتى هذه اللحظة، لم أقوَ على جمع شتات نفسي للاعتراف بأنني هزمت شر هزيمة على يد معلم وثقت به واتخذته قدوة. لم يشجعني أحد على الكلام، ولا حتى طبيبي النفسي.

- أتذهبين إلى طبيب؟

- فعلتها وأنا بالإعدادية. كانت لديَّ نوبات غضب عارمة تليها نوبات حزن عميق. أخذت أدخر من مصروفي لأذهب إلى جلسات الطبيب سرًّا. لم يعرف والداي بالأمر وقتها.

- هل كان طبيبًا جيدًا؟

- بل أكثر حماقة وجهلًا من أبي. كانت لديه تلك النظرات الفاحصة وكأنني فأر تجارب. يتأملني من رأسي حتى أخمصي ثم يقول أحاول فك شفرة لغة جسدك. أجريت اختبار الاكتئاب، لم يكن اكتئابي حادًّا فأخبرني أنني حزينة فحسب ثم أخذ يسألني أتصلين يا بتول؟ الفرض بفرضه يا دكتور. هل تقرئين القرآن؟ أتممت حفظه بالعام الماضي يا دكتور. إذن، لِمَ الحزن يا بنيتي؟ أتسألني أنا، أيها اللعين؟

- أي طبيب هذا!

- كان يقول تلك الجملة المستفزة في أكثر من جلسة: أنت تكبرين الأمور. كيف أكبرها يا سليل البهائم؟ أتراني أرضع مشكلاتي وأطعمها السيريلاك مثلًا حتى تكبر وتصير عروسة؟! فتاة في الإعدادية تأتي بمفردها إلى عيادة طبيب نفسي كي يساعدها على تخطي صدمة تحرش معلمها بها وينتشلها من شتاتها، أهذا ما تنتظره منك؟ أن تخبرها أنها تبالغ وتلومها على أخذ الأمور بحساسية؟

فرَّتْ دموعي مجددًا، فمسحتها بظهر يدي وأنا أقول:

- خنزير! بل الخنازير أطهر!

- توقفي عن استخدام تلك الكلمة المقيتة.

- إنها تلازمني كلما تذكرت أي معتدٍ يا جدتي. الأستاذ وليد كان يشرح لي قبل أن يتحرش بي بثوانٍ درسًا عن لماذا الخنازير تُعد كائنات شرهة إذا جاعت أكلت لحم صاحبها دون صون للجميل والعشرة، كما أنها نجسة لا

تعرف غير الوسخ والوحل. والله إن الإنسان ليُخنزر أكثر من الخنازير نفسها. على الأقل، تلك الكائنات لا تعرف بالفطرة غير الشره والوحل، أما البشر فهم يختارون التمرغ فيه بكامل إرادتهم.

ـ أعجز عن فهم هؤلاء المتحرشين الأنجاس. يقبلون على فعلة محرمة في الأديان كلها ومجرمة في القوانين كلها وتستنكرها المجتمعات كلها، من أجل ماذا؟ اختلاس صفعة على المؤخرة أو قرصة نخذ أو لمسة ثدي؟ ماذا يجنون من هذه المخاطرة القذرة التي قد تكون تبعتها فضيحتهم أو حبسهم؟ أي متعة تلك التي يجدونها في التعدي على كائن كرمه الله؟

ـ كنت أظن أنني رأيت أهوال الدنيا بعدما فعله بي وليد، ولكن ما رأيته في حالات التحرش والاغتصاب التي تمر علينا في جمعيات التصدي للعنف ضد المرأة جعلني أمقت البشر أجمعين، وأقسم على ألا أنجب أطفالًا لهذا العالم القذر. الاعتداء الجنسي لم يعد مقصورًا على البنات، الناس صاروا ينتهكون الحيوانات والأطفال من الجنسين وحتى الشباب البالغين. لا ينقص سوى أن يغتصبوا ثلاجاتهم!

ـ الأطفال! يا ويحي! والله إن هؤلاء المغتصبين ليستحقون الإبادة دون تردد. لو كان الأمر بيدي لما اكتفيت بأشرف.

التفت إليها، فرأيت على وجهها علامات الندم لأنها اندفعت في الحديث.

أوقفت السيارة على حيد الطريق ثم سألتها:

- جدتي، ألهذا قتلتِ زوجك أشرف؟ أكان يتحرش بالأطفال؟

هزت رأسها ثم قالت:

- كان مثل أستاذك وليد، رأيته بعينَي يتحسس ابن حارس العقار بشبق، سألت نفسي إن كان يفعل هذا بطفل عابر على بيتنا لا نراه إلا إذا أحضر لنا الجرائد، فماذا يفعل برضيعي المقيم معه طيلة الوقت ولا يملك القدرة على الكلام بعد؟

- لماذا لم تطلقي وتسلميه إلى الشرطة بدلًا من أن تقتليه وتعرضي نفسك للإعدام؟

- الزمن غير الزمن يا بتول، أشرف هو ابن عمي، العائلة لن تأخذ صفي، سيظنون أنني أكذب حتى يطلقني وأتخلص من الزواج الذي أجبروني عليه بعد استشهاد شرف الدين، حتى لو طلقتُ، لا أملك دليلًا أحبسه به، فارت الدماء في عروقي وقتها، حقنته بالأنسولين في النهار نفسه الذي رأيته فيه يتحسس الطفل، كان يجب أن أردعه بنفسي، من أجل مستقبل منتصر ومستقبل أطفال الحي جميعًا.

فرَّتْ دموعها، فلم أتمكن من عدم البكاء مثلها.

تعانقنا ومسحنا دموعنا، ثم رسمت جدتي ابتسامة باهتة على وجهها وقالت:

ـ أي همٍّ هذا؟ خرجنا لنروح عن نفسنا أم لنبكي مثل أمك النكدية!

ـ أنتِ على حق. فلنبتع الآيس كريم الذي تحبينه ونسير قليلًا على الكورنيش قبل أن نعود إلى بيتنا الذي يحتوي على ثلثي مخزون العالم من النكد.

* * *

انتهت سهرتنا الترفيهية التي تخللها الكثير من الحسرة والهم، إلى أن تأخر الوقت وعدنا إلى منزلنا.

نزلت جدتي أمام العمارة وسبقتني بالصعود إلى الشقة، بينما اتجهت إلى الجراج حتى أصف السيارة.

لمحت مريم داخل سيارتها منهمكة في البكاء، حتى إنها لم تنتبه لوجودي.

صففت سيارتي ثم أسرعت إليها وطرقت لها على الزجاج فانتفضت فزعة، ولكن حين لمحتني فتحت الباب ونهضت من مقعدها لتقف أمامي حافية وتلقي بنفسها بين ذراعي.

ـ ماذا حدث يا مريم؟ ماذا بكِ يا صغيرتي؟

ـ بهيج... اغتصبني. ولا تقولي لي إنه زوجك وهذا حقه.

ـ حق ماذا! أهذا كلام أبيكِ؟

ـ كلَّا. لا أحد يعرف ما صار لي سوى الدكتورة سناء. أخاف أن أخبرهم، وأخاف أيضًا أن أعود إلى الشقة فيكرر فعلته.

ـ على جثتي أن يَمسكِ هذا الخنزير مجددًا.

مسحت دموعها الحارة ثم قلت لها:

- ابقي هنا.

- ماذا ستفعلين؟

- سأجعله يدفع ثمن فعلته ثم يطلقك.

- ستضربينه؟

- وربي لأكسر بدنه الذي يختال بعضلاته.

- لا يا بتول.

- لا؟! هذا حقك يا مريم. أتريدين أن...

- أريد أن أقتص لنفسي، لن أتركك تواجهينه بمفردك.

* * *

كان يستحم ويشغل الأغاني بصوت عالٍ ويغني معها بمزاج رائق.

خنزير!

لم ينتبه لدخولنا عليه في الحمام وأنا أمسك مضرب البيسبول الذي اشتريته من موقع أمازون، كي أدافع به عن نفسي دون الوقوع تحت جنحة حيازة سلاح أبيض.

أشرت إلى مريم أن تجذب عنه ستارة المغطس، فانتبه لوجودنا والتفت خلفه ولكني لم أمهله.

ضربت رأسه ضربة محسوبة أفقدته وعيه، فسقط في المغطس.

أعطيت مريم المضرب ثم سحبت بدنه الثقيل خارج المغطس وسحلته على الأرض حتى غرفة الاستوديو العازلة للصوت، كي لا ينتبه أحد لصياحه حين يفيق.

بمجرد أن تركته على الأرض، وجدت مريم تهجم عليه بالمضرب وتضربه ضربات شرسة بين ضلوعه ومنطقة الحوض وساقيه.

لم أرَ من قبل هذا الغل والعنف في ملامح أختي الصغيرة المسالمة التي تهوى العناق.

جذبت منها المضرب وأنا أقول:

ـ توقفي! ستتسببين له عاهة! سيسجنونكِ.

ـ لا أبالي! يجب أن أعاقبه! سأؤذيه كما آذاني! حيوان! حيوان!

انهارت بين يدي وأجهشت بالبكاء وهي تخطرف:

ـ لم أفعل شيئًا سوى أني أعجبت به وحلمت ببيت معه. لا أستحق ما صار لي، لا أستحق أن أقع في غرام مريض بيدوفيليا يشتهي الصبية.

ـ ماذا؟ مريم، ماذا قلتِ؟

ـ لقد رأيته هذا الصباح يشاهد على حاسوبه المحمول فيلمًا إباحيًّا لصبي صغير وهو يمارس الـ..

ـ بهيج يشتهي الصبية؟ إنه يمضي الوقت كله مع عيسى!

لمحت حاسوبه المحمول ملقى على الأرض، ولكن كانت شاشته مهشمة.

كدت آخذه، ولكني انتبهت إلى أن سروال عيسى ملقى بالقرب من الحاسوب.

شهقت مريم، يبدو أن الأمر لم يخطر حتى على بالها.

انتشلت سروال أخي من على الأرض ثم خرجنا من الغرفة، وأوصدناها بمفاتيح مريم حتى لا يهرب بهيج.

كانت خطتي أن نؤدب يجو ونعنفه، كما عنف أختي، ثم نجبره على تطليقها، ولكن بعدما رأيت سروال شقيقي الصغير ملقى في غرفة يبدو أن معركة طاحنة قد دارت فيها، تسارعت ضربات قلبي وكلي ثقة أن هذه الليلة لن تمر مرور الكرام.

١٧

نصرة

(قبل الجريمة بيوم)

دخلت الشقة وما زلت أسمع صياح ابني، لعنة الله عليه.

كان في غرفة نومه وصابرين تقول له:

- ستفضح الولد، ابنك مستقيم ولا يفوت ركعة، لِمَ تستسهل إساءة الظن في أولادك؟

ما له وعيسى الآن؟

كان يومًا مشحونًا بالهم والأسى بما يكفي، فلو سمعت مشكلة أخرى فعلها منتصر الوغد، غالبًا سأقتله.

اتجهت إلى غرفتي وهممت أن أفتح الباب، ولكنه كان موصدًا.

طرقت الباب قائلة:

- مَن في الداخل؟

لم أسمع ردًّا.

- عيسى؟

لا رد! ولكني أسمع أنين وخنين بكائه.

- افتح يا حبيبي، ما الذي فعله بك أبوك؟

فتحت صابرين باب غرفتهما واقتربت مني وهي تبكي وتقول:

- في عرضكِ يا ماما نصرة، ساعديني.

- ماذا فعلتما بالصبي؟ ألا يكفي أنه مكتئب من عيشتكما المقرفة؟

سمعت ابني يصيح من غرفته في طريقه للانضمام إليَّ وزوجته.

- اكتئابه هذا هو لعنة الله عليه من مسلسلات الشواذ التي يشاهدها حتى أصابه ما أصابهم!

كان رد فعلي التلقائي هو صفع منتصر بأقصى قوتي، وشاء الله أن تدخل ابنتاه في هذه اللحظة لرؤيته وهو يُصفع أمامهما.

لم يصدق ما فعلته، إنها المرة الأولى التي أعنف فيها ابني منذ أتى إلى الدنيا.

- قطع لسانك! ابنك هو سيد الرجال! أتخوض في عرضك يا وغد؟

- أتضربينني يا أمي وأنا في هذه السن؟

- وأخلع رأسك عن كتفيك. ابنك الذي لا يعلو صوته على صوتك مهما قسوت عليه وكرهته في حياته، تنعته بصفة كهذه؟ بأي بهتان أتيتَ!

- حسنًا، اسأليه بنفسك، لقد ضاجعه بهيج.

التفت نحو مريم وصاح فيها:

- لم تصطفي من بين رجال الدنيا سوى هذا النجس

الذي علَّم أخاكِ اللواط!

لطمت مريم وجنتيها وبكت، بينما شهقت بتول ثم صاحت:

- لقد انتهكه! أخي بريء من دنسه. هذا الحقير مريض بيدوفيليا مغتصب، أخبريهم يا مريم!

- أجل يا أبي، بتول تقول الحقيقة. بهيج يشتهي الأطفال، لم أكن أعلم حتى اليوم. إنه خطر، يجن جنونه وينهش الأبدان دون حساب، يجب أن يُحاسب، يجب أن يحاكم على ما فعله بي وبعيسى.

- يحاكم! بأي تهمة؟ تهمة أن أخا زوجته الخَرِع سمح له أن يضاجعه!

كدت ألطم منتصر مجددًا، ولكنه تصدى ليدي هذه المرة ودفعني وصاح:

- كفى! أنتم تتوهمون. قد يَغتصب الرجل امرأة، ولكن لا يغتصب الرجل رجلًا أبدًا. ليس دون أن يستسلم إليه أو يستحلي ما يفعله به.

صرخت فيه بتول:

- لماذا؟ ألا يمكن للرجل أن يسرق بالإكراه؟ فكيف لا يغتصب بالإكراه؟

- لا تقولي اغتصب.

- أهون عندك أن تصدق أن ابنك القاصر مارس الجنس مع زوج أخته بكامل إرادته بدلًا من أن تصدق أن

عرضه هتك؟ لماذا؟

ـ لأن مدرسًا تحرش بابنتي، ورجلًا هتك عرض ابني، وسائق تاكسي اغتصب زوجتي، أي رجل أنا!

ـ منتصر!

صاحت فيه صابرين، ثم بكت حين كشف سرها أمام ابنتيها.

تراجعتْ وحاولت الهرب من أعيننا جميعًا، خاصة حين قالت بتول:

ـ ماذا؟ أمنا اغتُصبت؟

ـ لا، يا حبيبتي. بالتأكيد لم أغتصب. منتصر لم يكن يقصدني، يقصد زوجة أخرى.

اندفعت مريم صوب أمها فعانقتها وهي تبكي وتقول:

ـ أمي!

ـ يا حبيبتي، لست أنا. أخبرها يا منتصر، أخبرها أي زوجة تقصد.

مسحت بتول دموعها، ثم قالت لأبيها:

ـ يبدو أنك اخترتَ دفن رأسك في الرمل منذ زمن، وجعلت من الإنكار دواءً لعجزك عن صوننا واسترداد حقوقنا. حسنًا، لا بأس، لسنا في حاجة إلى حمايتك لنا بعد الآن، لن أترك فردًا آخر في هذه العائلة يُظلم بسببك.

اتجهت بتول صوب الباب وطرقته عدة مرات وهي

تنادي عيسى ولكنه لم يرد.

ركلتْ قلب الباب الخشبي الواهن ثم ضربته بمضربها الثقيل، فأحدثت ثقبًا في الباب مكنها من دس يدها فيه وفتح القفل الداخلي.

دخلنا الغرفة فوجدنا عيسى غارقًا في دمه.

الكدمات تفترش وجهه وثيابه ممزقة، وشعره منسدل على وجهه، ويمسك مسدسًا يوجهه صوب رأسه ويقول:

- لا تقتربوا!

صرخت صابرين، بينما وقف منتصر يقول:

- أتموت كافرًا؟

- الله أرحم منك عليَّ. الموت عندي أهون من العيش معك، أكرهك!

وقفت مريم تبكي وتقول:

- أتموت وتحرق قلوبنا عليك يا حبيبي؟

تركتهم يحادثونه بينما اخترقت تجمعهم واتجهت صوب عيسى فقال:

- لا! ابتعدي يا جدتي! سأقتل نفسي!

كنت أعلم أن المسدس خالٍ من الرصاص، فأنا أبقي علبة الرصاص في جيب الحقيبة الجانبي ولا أتركه محشوًّا أبدًا.

ظل يهدد بقتل نفسه وبتول ومريم وصابرين يصحن فيَّ

كي لا أقترب منه فينفذ تهديده، ولكني تجاهلتهن جميعًا وانتشلت مسدسي من حفيدي وألقيته بعيدًا فسقط عند قدمَي صابرين.

جذبت عيسى إليَّ وعانقته، فتلطخ صدري بدماء جروحه.

بكى حبيبي المسكين، وأخذ يصيح بحرقة:

- عجزت عن الدفاع عن نفسي يا جدتي، لقد ضربني ضربًا مبرحًا. والله أفقدني وعيي، لم أكن لأطاوعه.

- أعرف! أعرف يا ولدي يا زين الرجال.

قبَّلت رأسه ثم قلت له:

- بُني، ورحمة جدك، لأقتلن لك هذا النجس وأخفي جثته وكأنه لم يرَ شمسًا ولا قمرًا.

- كلَّا، سيشنقونكِ. سأقتله أنا.

- أتظنني حمقاء حتى أترك دليلًا يدينني؟ اسمع يا ولدي، لقد فعلتها من قبل، قتلت وغدًا متحرشًا يشتهي الأطفال ودفن دون أن يُفضح ويعلم الناس شره. لم يجد الناس عبرة يعتبرون منها لهذا، مارسوا الشر نفسه دون أن يجدوا رادعًا.

صاح منتصر:

- توقفي يا أمي! لا تحرضي ابني على فضح نفسه بنفسه.

- ما من مفضوح غيرك يا منتصر.

ـ هل جننتن جميعًا؟ أنتن تقضين على مستقبله! كيف سيحيا باقي حياته والجميع يعرف ما حدث له؟ كيف سيتزوج؟

صاحت بتول:

ـ توقف! توقف عن هذا الكلام المقيت! أنت تؤذي أخي.

ـ اخرسي يا بتول، يا غراب الدار!

ـ لن أخرس! ليس بعد اليوم! سآخذ أخي وأذهب إلى القسم. بهيج سيحاكم ولن نجعل أي صبي آخر يعاني ما عاناه عيسى!

ـ أنتِ لا تفعلين هذا من أجل عيسى، بل من أجل نفسك حتى تشعري بأنكِ انتقمت من وليد. أنتِ منافقة!

ـ وأنت جبان!

صفع بتول وانقض عليها وأخذ ينزل صفعاته عليها.

حاولت مريم وصابرين أن تبعداه عن بتول، ولكنه ظل يصيح:

ـ لا أحد من أهل بيتي سيخطو إلى مركز الشرطة. لن تفضحنني، يا عاهرات!

تشبث عيسى بي وارتجف خائفًا، ولكني تركته واتجهت إلى حقيبتي المفتوحة التي أخذ منها المسدس.

سحبت بندقيتي واستغللت انشغال منتصر بضرب ابنتيه، ثم هَويت بكعب سلاحي على رأسه ففقد الوعي ونزف.

نظروا إليَّ جميعًا في حالة من الصدمة، ولكنني لم أُبالِ.

استندت إلى طرف البندقية وقلت:

ـ والآن، عيسى يا حبيبي، الاختيار اختيارك وحدك. تريد أن نقتل الوغد اللعين أم نتركه للقضاء حتى يحققوا العدل ويقتصوا منه لضحاياه جميعًا؟

ظل الصغير يقلب نظره بيننا وكأنه ينتظر منا أن نغششه، ثم قال:

ـ العدل.

ـ تفهم تبعات ذلك يا ولدي؟ الأمر لن يكون سهلًا.

هزَّ رأسه ثم كرر الكلمة نفسها:

ـ أريد العدل.

اقتربت بتول وعانقت أخاها الباسل، وهمست إليه باكية:

ـ نحن معك يا حبيبي. سنعاضدك حتى ينتهي الأمر. صدقني، سنوات من التعافي خير من عقود من الصمت والإنكار.

المرحلة السادسة

إعادة البناء

١٨

عيسى

(ليلة الجريمة)

تخطينا منتصف الليل، فأعلنت الساعة عن يوم جديد، العاشر من أغسطس.

جدتي أمرت مريم بأخذ أبي إلى الطبيب، بينما ظلت أمي جالسة على الأرض في صمت، لا تعلق ولا تتكلم.

أخبرتها جدتي أنها وبتول ستأخذانني إلى القسم فهزت رأسها ولم ترد.

ساعدتني بتول على الدخول إلى الحمام وتهيئة نفسي للذهاب إلى القسم، فتطوعها مع جمعيات التصدي للعنف ضد المرأة جعلها خبيرة في التصرف في ظروف كهذه.

أخبرتني ألا أستحم ثم غسلت لي وجهي وضمدت جروحي، وأخذت مني ملابسي ولفتها في ظرف ورقي كبير حتى لا تفقد ما عليها من آثار الجريمة وتفيدنا في التحقيقات.

وجدت صعوبة وألمًا شديدًا في الجلوس في سيارتها، كانت مقعدتي تئن ألمًا بمجرد أن تلمس أي سطح.

جلست جدتي بجواري، تضع رأسي على صدرها وتربت على شعري.

كم كان الأمر غريبًا.

كنت في حالة يرثى لها، ولكن بطريقة ما، لم يركز عقلي على أي شيء سوى التفكير في رد فعل لارا إذا عرفت ما حدث لي.

هل سأظل في نظرها البطل الذي دافع عنها وتصدى لمن تحرشا بها، أم سأكون الصبي القاصر المسكين الذي تعرض للاغتصاب على يد مريض بيدوفيليا؟

الفكرة وحدها أطبقت على صدري، وشعرت بنار السعير تلتهب بداخلي.

أردت أن أبكي، ولكن يبدو أن دموعي تخلت عني وهجرتني دون عودة.

بدأت أدرك أن الأمر أكبر من لارا بكثير، ماذا سيقول عني الناس جميعًا، إذا كان أبي نفسه نعتني بـ«اللوطي»؟

أعرف ماذا سيقولون؛ فتى ضعيف عديم الرجولة عجز عن حماية نفسه. ولكنهم يقولون هذا عني على أي حال لمجرد أنني تأثرت بموت زميلتي وأصبت بالاكتئاب.

يقولون هذا عني لأنني أحب اللون الوردي، لأنني أربط شعري للخلف، لأنني أستخدم بعض المفردات الفرنسية في حديثي، لأنني أطالب بمساواة الذكر والأنثى، لأنني عاطفي وبعض الأفلام المؤثرة تُدمع عينَي.

هل حقًّا أبالي الآن بما سيقولونه بقدر مبالاتي باسترداد حقي من بهيج؟ بقدر مبالاتي بالقصاص منه وجعله عبرة لأي مُعتدٍ مثله؟ لأي شخص يشتهي القاصرين؟ لأي معلم تحرش بتلميذته مثل وليد الكيلاني؟ لأي سائق تاكسي غدر بزبونته واغتصبها مثلما حدث لأمي؟

صمتي سيمكّن المغتصبين أشباههم ويعطي الحق لأمثال أبي بأن يصمونا بالضعف والعهر ويلقوا علينا اللوم لمجرد أنهم لا يقدرون على مواجهة ضعف أنفسهم وعجزهم عن حمايتنا.

تجريد الضحية من براءتها والدفاع عن المجرم، لهو أسهل مليون مرة من تحمل اللوم على تمكين الجاني وتيسير اعتدائه علينا من الأساس.

كنت دائمًا أقول لماجد إنني مكتئب لأنني عاجز عن مساعدة من يعانون من حولي. اليوم، سأتمكن من مساعدة نفسي ومن هم مثلي. من صرخوا ولم يجدوا من يلبي نداءهم، أو من صمتوا وتنكروا من فاجعتهم.

اليوم، سأحدث فرقًا.

* * *

وصلنا إلى قسم قصر النيل.

طلبت بتول من جدتي أن تبقى معي في السيارة، وستدخل هي أولًا لترتيب الأمور.

أعتقد أنها أرادت أن تتحدث مع الضابط وتقص عليه ما

حدث، دون أن أسمعها وأتأثر بما ستورويه عني فأسترجع فجاعة الأمر.

نظرت جدتي إليَّ وقالت:

- أتود أن تبكي يا ولدي؟

هززت رأسي نفياً، كنت اكتفيت من البكاء على أي حال.

قبَّلت جبيني، ثم قالت:

- أردت فقط أن أعلمك أنك لست في حاجة إلى تصريح منا حتى تفرغ ما بفؤادك.

غابت عنا بتول قرابة نصف الساعة ثم عادت إلى السيارة وقالت لي:

- حبيبي، وجدت ألطف ضابط يمكن أن تلقاه في حياتك، شرحت له الأمر. لديه فقط بضعة أسئلة. في أي وقت تشعر بالضيق يمكننا أن نعتذر إليه ونرحل.

- هل صدقك؟

- بالتأكيد، لم يطلبك للتحقيق معك! يود أن يراجع معك بضع معلومات وبإذن الله سنحبس هذا الخنزير!

هززت رأسي ونزلنا من السيارة، ثم دخلت معهما إلى القسم لأول مرة في حياتي.

لم يكن المكان مزدحماً مثل أفلام التلفزيون، بعض الضباط والعساكر وأمناء الشرطة يتحركون ويشربون الشاي ويحملون بعض الملفات.

رأيت بعض الشباب يمشون والأغلال في أيديهم، ولكني لم أرَ أي مناظر عجيبة أو مخيفة.

دخلنا إلى مكتب الضابط الذي حكت لي بتول عنه، كان اسمه عجيبًا، قطز المحمدي.

قميصه ناصع البياض، ويشرب كوبًا من الكاكاو الحلو وأمامه بضع أوراق وبجواره أحدث رواية للكاتبة آسيا خضر.

ربما لهذا وجدت أنفه المعقوف ووجهه المتطاول وشعره الغزير مألوفًا، أعتقد أنني رأيته في إحدى ندوات آسيا خضر.

نهض الضابط وسلم عليَّ بترحاب شديد، وكاد يربت على كتفي ولكنه تراجع، ربما شعر بأنه من الغباء أن يلمسني أي رجل غريب الآن.

جلست على الكرسي المقابل له تخلفني جدتي وبتول.

همست إليَّ بتول قائلة:

- أتفضل أن نخرج من الغرفة حتى تتحدث بحرية، أم تود أن نبقى معك يا حبيبي؟

نظرت إلى الضابط، كان يبتسم ببشاشة تصل إلى حد البلاهة، فقلت لها:

- انتظريني عند الباب.

هزت رأسها وخرجت هي وجدتي.

نظر إليَّ الضابط، وكنت أرى التعاطف القاتل في عينيه حتى سعل، وقال:

- ستأخذ حقك. عقوبة ما حدث تصل إلى خمسة عشر عامًا.

- متى ستقبضون عليه؟

- الآن. سأذهب معك وأثبت الحالة وألقي القبض عليه وأستجوبه وأحوله إلى النيابة. النيابة بدورها ستحولك إلى الطب الشرعي. ولأنك قاصر، لن يطول الأمر على ثلاثة أشهر حتى نزج به في السجن ويصبح عبرة لمن يعتبر. ولكن، خلال هذه الفترة، ربما نتعرض لبعض السخافات على مواقع التواصل الزفت الاجتماعي. ماذا ستفعل وقتها يا بطل؟

- سأتماسك و...

- بل ستبلغ عن أي سافل يتنمر عليك أو يسبك. وبحق ربي، لآتي إليك بحقك منه. كله بالقانون.

هززت رأسي إيجابًا.

كانت بتول على حق، قطز هو ألطف ضابط يمكن أن نتعامل معه.

قدم إليَّ ورقة وقلمًا وقال:

- كتبت الأسئلة التي ستفيدنا في التحقيق. أعلم أنك مرهق بما يكفي ولا تود أن تمضي الليل في الحديث. لهذا، فقط اكتب نعم أو لا بجوار كل سؤال، ويمكن أن

تسهب في الوصف إذا أردت. أحاول فقط أن أيسر عليك الأمر.

تنفستُ الصعداء.

فكرة أن أقول لقد لمسني هكذا وفعل هذا وفعل ذاك كانت مقيتة. أعجز عن النطق بوضوح بما صار لي بصوت عالٍ أمام شخص غريب، لهذا ابتكار أن أضع علامة بجانب الإجابة أثلج صدري.

أخذت منه الورقة والقلم، لم أكن أعلم أن يدَي ترتعشان بهذه القوة.

سألني:

- أتود أن تأكل شيئًا؟ لديَّ بعض شطائر شاورما الدجاج من فلفلة.

هززت رأسي نفيًا.

- حسنًا، فلتشرب شيئًا على الأقل. هل تحب الكاكاو؟

هززت رأسي نفيًا للمرة الثانية، فأضاف:

- ماذا عن الليمون؟

- حسنًا.

- صديقي مثلك، يعشق الليمون.

نهض عن مقعده وقال:

- سأطلب لك الليمون وأنتظرك في الخارج. ستجد رزمة من الأوراق الخالية على يسارك. خذ وقتك واكتب ما

تشاء وناديني فور أن تنتهي.

خرج وتركني مع الأسئلة.

كانت مفصلة ودقيقة، وتخلو من الأوصاف الجارحة والفجة.

أجبت عنها وأنا أستعيد تفاصيل ما صار معي، ثم سحبت ورقة خاوية، ملأتها بأحداث أتعس قصة قصيرة كتبتها في حياتي.

فرغت كلماتي وامتلأت عيناي بدموعي. أخيرًا زارني البكاء.

وضعت الأوراق جانبًا، ودفنت وجهي بين كفَّي وأخذت أبكي، إلى أن هدأت.

مسحت دموعي وتأوهت مع كل جرح ألمسه في وجهي، وأخذت أنفاسًا عميقة متكررة ثم ناديت الضابط، فدخل ومعه الليمون وبتول وجدتي.

وضع الكوب أمامي، وأخذ الورقة دون أن ينظر إليها، فحمدت الله على ذلك. لا أريده أن يقرأ ما كتبت أمامي وأرى نظرات الشفقة على وجهه.

انتشل مفاتيحه وأغلاله وأحكم وضع سلاحه في حزامه، ثم قال:

- هيا يا بطل! سنعيد هذا المسعور إلى قفصه!

كانت هذه خطتنا، نسلم بهيج الضاري إلى القانون حتى يقتص منه المجتمع كله. ولكن مَن مِنا أخل بالاتفاق،

وقرر أن يطلق عليه الرصاص ويرديه صريعًا في غرفة الاستوديو؟

لا فكرة لديَّ.

١٩

صابرين

(ليلة الجريمة)

كل المصائب هينة إلى أن تصيبك.

في مايو ١٩٩٥، خرجت من بيتي وأنا أحمل بتول بين ذراعَي.

لم يتخطَّ عمرها العام والنصف آنذاك، وكان عمري أنا عشرين عامًا فحسب.

كنت في طريقي إلى طبيب الأطفال لمتابعة حالتها، فقد كانت تصاب بنوبات حمى متكررة.

لم يكن منتصر بدأ عمله في الخارج بعد، كان لا يزال يعيش معنا في القاهرة، وعلى الرغم من ذلك، مارس تنطعه وتحجج بأنه مرهق بعد يوم عمل طويل، ولا يقدر على إيصالي من الزمالك إلى الهرم.

- لماذا اخترتِ طبيبًا بعيدًا عنا كل هذا البعد؟

- لأنه الأفضل في مجاله بشهادة الجميع يا منتصر.

ألقى إليَّ المال، وقال:

- اركبي تاكسي.

فعلت ما قاله.

كانت مقاعد التاكسي مفروشة بفرش أحمر عجيب،

وتتدلى من مرآته الأمامية فواحة على شكل ثمرة جوز هند.

كانت رائحتها قوية جدًّا.

سلك السائق طريقًا لا آلفه، فأنا لا أجيد القيادة ولا أخرج كثيرًا من منطقة الزمالك على أي حال حتى أحفظ الطرق.

كان يشغل شريطًا لمحمد منير، ويكرر معه كلمات أغنية «أنا بعشق البحر».

مرضت بتول فجأة وكانت ستتقيأ، فأخرجت كيسًا بلاستيكيًّا من حقيبتي كالعادة حتى تفرغ ما بمعدتها فيه.

انشغلت بها وبتنظيف ثيابها وثيابي وهدهدتها حتى تتوقف عن البكاء، وفجأة أوقف السائق السيارة.

لا أدري أين كنا! الطريق هادئ بشكل مربك، ولا أثر لأي نور سوى كشافات التاكسي الأمامية.

- أين نحن يا أخ؟ هل تعطلت السيارة؟

نزل من السيارة بهدوء وفتح الباب الخلفي فوجدته يقترب مني، وقد أخرج أعضاءه من سحابه.

جذبني من ساقي فصرخت فيه.

سحب الكوريك من مقعده، وقال بكل هدوء:

- سأكسر جمجمة ابنتك إن قاومتِ.

عرضت عليه أن يأخذ أموالي والذهب الذي يزين صدري ورسغي، وحتى قرط بتول وسلسلة «ما شاء الله»

التي ترتديها.

- خذ كل شيء، ودعنا نرحل بسلام.

ولكنه لم يرد سوى شيء واحد وقد أخذه مني في صمت لم يقاطعه سوى بكاء ابنتي.

حتى الآن، أحمد الله أنها كانت في هذا العمر، ولم ولن تذكر أبدًا أنها رأت أمها في هذا الوضع.

انتهى، ثم قال إنه سيكافئني لأني لم أصرخ، سينزلني على الطريق السريع لآخذ تاكسي آخر.

صدق في وعده، أكثر الله من خيره، ثم طالبني بالأجرة.

قذر!

كنت مرعوبة من أن أركب أي سيارة أجرة أخرى، سرت على قدمَي، أرتدي الكعب العالي وأضم بتول الباكية إلى صدري، والسيارات تسرع من جواري وتضرب أبواقها ويتلفظ سائقوها بألفاظ جنسية قذرة.

تمنيت لو كانت إحداها دهستني، ولكن ما ذنب بتول حتى تموت في حضني!

وصلت إلى أقرب محل بقالة فيه هاتف، واتصلت بمنتصر.

- يجب أن تسرع إلى مكاني وتوصلني إلى البيت.

- ماذا حدث لكِ؟

- سُرقت حقيبتي بكل ما فيها.

أخذ يشتمني لأنني بلهاء وفقدت أشيائي مرة أخرى، وأنني ما زلت أتصرف مثل المراهقات لا كشابة أتمت عامها العشرين.

انتظرته أمام محل البقالة. لم أبكِ، لم أصرخ، لم يحدث أي شيء. أهدهد بتول وأتلفت حولي بقلق فحسب.

أتى بسيارته البيجو الحمراء، ألقيت نفسي بداخلها فرأى حقيبة يدي معلقة على كتفي، فقال:

ـ هل استعدتِ حقيبة يدك؟

هززت رأسي نفيًا، ثم همست إليه بصوت واهن بالكاد يُسمع:

ـ لم أفقد حقيبة يدي... سائق التاكسي وقف في مكان مجهول واعتدى عليَّ!

نظر إليَّ وإلى بتول الجالسة في حجري وقد سقط رأسها على صدري بعدما نامت من إجهاد البكاء.

بدون أي مقدمات، صفعني بعنف، فشعرت بطعم الدم يغزو فمي.

انتفضت بتول من شدة الصفعة وبكت مجددًا.

هربت الدموع مني دون أن أنطق بحرف.

كور منتصر قبضتيه، ثم نظر إليَّ وجذب طرف تنورتي بعنف وهو يهددني كأنه سيلكمني، وقال:

ـ كم مرة نهيتك عن ارتداء هذه التنورة القصيرة وهذه البلوزة الضيقة!

ـ أنا آسفة! أنا آسفة!

ـ كيف تركتِه يحيد عن الطريق ويقودكِ إلى منطقة مجهولة؟

ـ بتول كانت تتقيأ... لم أقصد! أنا آسفة!

ـ ما رقم لوحة سيارة التاكسي؟

ـ لا أعرف! لا أعرف!

ـ وإن كنتِ لا تعرفين، كيف سأصل إليه لأثأر لشرفي؟

ـ لا تثأر، لم يحدث شيء، لا داعي للفضيحة!

ـ وأي فضيحة! جلبتِ لي العار يا صابرين! حسبي الله ونعم الوكيل فيكِ!

ـ أنا آسفة، لم يرني أحد، لا أحد يعرف شيئًا... لن أقول لأي شخص!

ـ أين أنزلكِ هذا النجس؟

ـ على الطريق السريع.

لكم كتفي بقسوة، وصاح:

ـ وسرتِ بهذه الملابس في الليل على الطريق السريع! من الآن فصاعدًا سترتدين ما أختاره لكِ. لا مزيد من التسوق بمفردك. ستصغين إلى أوامري. شمال شمال، يمين يمين.

ـ حسنًا، حسنًا. كله بأمرك يا منتصر!

في اليوم التالي، تحجبت.

في الشهر التالي اكتشفت أنني حامل.

لم أخاطر حتى بأن أخبره بحملي، أجهضت الطفل في صمت، فمنذ أن اعتدى السائق عليَّ، ومنتصر هجر فراشي، وبالتأكيد سيشك أن هذا الطفل هو ابن السائق على الرغم من أننا تعاشرنا في المساء الذي سبق اغتصابي.

رزقنا الله بعقد عمل لمنتصر في الإمارات، فلم أعد أراه سوى مرة كل ثلاثة أو أربعة أشهر، يمضي الصباحِ مع بتول ثم يبيت في المساء عند امرأة تزوجها بعدما اغتصبت بثلاثة أشهر.

لم نتحدث عما صار لي مجددًا، ولم نتعاشر إلا بعد سبعة أعوام، فرزقنا الله بمريم.

توترت الأمور حين أخبرتني بتول أن معلمها تحرش بها، أخذتها لطبيبة النساء فأكدت لي أنها ما زالت بكرًا.

حمدت الله أنها لم تختبر بشاعة ما اختبرته أنا.

حاولت أن أصبرها وأخبرها أن كل شيء سيصير على ما يرام، صدقيني، ستنسين مع الوقت.

يا لك من كاذبة يا صابرين! وكأنك أنتِ نسيت، ولم يعد لديكِ رهاب قاتل من سيارات الأجرة ومن رائحة جوز الهند ومن صوت محمد منير.

كانت بتول متمردة، أصرت على أن تقتص لنفسها فاتصلت بأبيها في الإمارات وأخبرته بما صار كي يأتي وينتقم لها من معلمها.

حمقاء! منذ متى والرجال يقتصون للنساء، لا يعرفون سوى القصاص منهن؟

فعل بها ما فعله بي، لامها لأنها نسيت أن ترتدي سروالًا قصيرًا أسفل تنورتها هذا الصباح، وبالطبع لامني لأنني لم أُعلِّم ابنتي كيفية الدفاع عن نفسها.

يا أخي، كنت دافعت أنا عن نفسي!

هدد بأن يطلقني، فقد زادت مشكلاتي، وكأنني أتعمد تلويث سمعته بأي طريقة ممكنة.

أخبرته أنني فعلت ما بوسعي، علمتها ما علمتني أمي وخالاتي وعماتي من بعد وفاتها.

لا تفرج ساقيها عند الجلوس، لا ترتدي تنورة دون سروال قصير من تحتها، لا تبيت في منزل صديقة فيه أب أو أخ، لا تقود العجل، لا تقفز بقوة في المسبح، لا تركب الخيل في رحلة المدرسة للأهرامات.

فعلت ما بوسعي يا أخي، وربيت ابنتي، ولكن كيف كان من المفترض أن أربي مُدرسها وأعلمه ألا يتحرش بتلميذة تصغره بثلاثين عامًا؟

فقدت أعصابي يومها، وأخذت أصرخ فيه فصفعني صفعتين متتاليتين أمام بتول.

- آسفة يا منتصر. سأحاول أن أكون زوجة وأمًّا أفضل.

لم يكتفِ اللعين بنقل البنت إلى مدرسة مختلفة، لكنه أخذها دون علمي وختنها.

- لماذا يا منتصر؟

- حتى أعلمها العفة. الفتيات في سن المراهقة يستثرن، علها أعجبت بهذا المعلم وأرادته أن يطفئ لهيب شهوتها المستجدة.

قطع الله رأسك يا منتصر ويد الطبيب المجرم الذي فعل هذا بابنتي.

دخلت بتول غرفتها وعيناها حمراوان من فرط البكاء، ولكن بمجرد أن لمحتني أدخل عليها حجرتها، امتنعت عن البكاء أمامي.

حاولت أن أعانقها على عكس عادتي، فدفعتني بعنف.

صاحت فيَّ، نعتتني بالجبانة، بالكاذبة، بالغدارة، بالضعيفة. وأخذت تكسر أثاث غرفتها، ثم أوصدت بابها.

من يومها، لم يفتح بابها في وجهي مجددًا.

لا تعتبرني أستحق لقب أم ولم تعد حتى تحترمني، بل تحتقر شخصيتي.

ما عليها شيء، أنا أستحق احتقارها لي.

ينعتها أبوها بـ«القنبلة الموقوتة». مَن الذي صنع هذه القنبلة يا منتصر؟ إنها من صنعنا يا عزيزي.

هذا الجيل ثائر، يعرف الصياح، يعرف الاعتراض، يعرف حقوقه.

تسألني بتول بعد كل زيارة لمنتصر لنا:

- كيف تتحملين أبي يا ماما؟

- وما خطبه يا حبيبة ماما؟ الرجل لا يحرمنا من شيء وكل طلباتنا مجابة.

- وهل الزواج بقالة وملابس؟ أين حقوقكِ يا أمي؟

- أي حقوق يا بتول؟ أنا راضية بحالي.

- بل أنتِ خَنُوع، خاضعة للظلم. أين حقوقكِ كزوجة؟ ألا يحق لكِ أن يعدل زوجك بينكِ وبين باقي زوجاته؟ أن يكون زوجك ساكنًا معك في البيت نفسه وتجديه بجوارك متى احتجتِ إليه؟ أن ينام معك في الفراش نفسه؟ أن يلبي حقك الشرعي عليه؟

قليلة الأدب، تقصد الجنس!

تلك الكتب الأجنبية التي تترجمها علمتها قلة الحياء والبجاحة.

تقول لأمها في وجهها من حقك أن تجدي زوجك يطارحك في الفراش؟!

ما عليه شيء يا قلب أمك. غدًا تتزوجين وتفهمين الخيبة بنفسك.

قال زوج يلبي حقك الشرعي قال.

وعيها يثير حفيظتي، ولكني أحمد الله أن لي ابنة تعرف ما لها وما عليها، ابنة لن تتلقى صفعات زوجها بابتسامة، ولن تُغتصب فتقول أنا آسفة لأنني اغتصِبت، سامحوني لأنني كنت ضحية.

أخاف من قوة بتول، وأحسدها عليها.

ليتني كنت في نصف ذكائها، لما انتهت بي الحال وأنا أجلس الآن بمفردي في الشقة أبكي خيبتي وحسرتي بعدما خرج منتصر مع مريم إلى المشفى، وذهبت بتول ونصرة وعيسى إلى القسم.

أنا التي اصطفيت بهيج زوجًا لابنتي، أنا مَن لفت نظر مريم إليه وأخذت أغزل خيوط المودة بينهما.

لقد وثقت به، أدخلته بيتي، زوَّجته لابنتي، اعتبرته ابني الثاني، وشجعت عيسى على الوثوق به وتقضية الوقت معه.

كنت أحنو عليه لأنه يتيم مثلي، أطهو له أشهى الأصناف وأشتري له السبح والمصاحف وأجعله يناديني بماما.

أيكون هذا جزاء الإحسان؟ يغتصب ابني وابنتي في اليوم نفسه؟

ثم تأتي بتول بثقة وتقول سنبلغ عنه الشرطة يا ماما.

ما الذي ستفعله الشرطة يا عين ماما؟

صحيح أنني لم أكمل تعليمي في كلية الحقوق، ولكني أعي ما أقوله، كلمة اغتصاب لا تنطبق على الذكور يا حبيبتي، يصنفونه كهتك عرض، أي أنه لن يُعدم أبدًا، أقصى عقوبة ستكون خمسة عشر عامًا، ثم يخرج بعدها يغتصب المزيد من الصبية أو ربما يأتي إلينا لينتقم منا.

تقول لي هذا الحق يا ماما، يجب أن نجعل منه عبرة حتى نردع باقي المعتدين الجنسيين.

أي حق يا قلب ماما؟ بمجتمعنا لا يحق للرجال أن يكونوا ضحايا على أي حال.

لا نملك حتى خط نجدة للعنف الجنسي ضد الرجال.

يوجد خط نجدة للطفل. حسناً، ماذا لو لم تكن الضحية طفلاً، لو كان عيسى عمره ثمانية عشر أو تسعة عشر، أي أنه ليس قاصراً، أكنا سنجد من يهتم بنجدته؟

هذا المجتمع صنع ليزعزع ثقتنا بأنفسنا، يبيعون للنساء الخزي والعار، وللرجال الذكورة الهشة.

يا حزني عليك يا بني، ستفضح نفسك هباءً.

بكيت.

لا أدري هل أبكي على حالي، أم على حال بتول، أم على حال مريم، أم على حال عيسى، أم على حال البشر أجمعين!

وسوست لي الشياطين، وكررت كلمات بتول أنتِ جبانة يا ماما لا تعرفين غير الندب والنحيب، ولكن لا تأخذين أي موقف من أجلنا.

حسناً، تحسبون أن الشجاعة في الصراخ بأعلى صوتكم حتى يدري الجميع ما أصابكم، يا جيل الإنترنت؟

بعد عقود من الصمت والقهر، ستتعلمون نوعاً مختلفاً من الشجاعة يا أولادي.

أخذت مسدس نصرة وحشوته بالرصاص.

كان الأمر صعباً، ولكنه ليس مستحيلاً على امرأة

فؤادها محمل بالحسرة مثلي.

أخذت مفاتيحي وصعدت إلى شقة مريم.

فتحت الباب وذهبت بخطوات بطيئة إلى غرفة الاستوديو.

تركت بتول المفتاح في قلب القفل حتى يصعب على بهيج محاولات فتحه.

فتحت الباب، وفجأة خرج صوت بهيج وهو يصيح ويطلب النجدة، ويحاول شرخ الزجاج العازل للصوت المطل على الطرقة بالكرسي.

ابن المفضوحة كان يقف عاريًا كما خلقته أمه.

أمسكت المسدس كما في الأفلام الأمريكية، وأطلقت الرصاصة، ثم شعرت بألم رهيب في إصبعي ونفرت منها الدماء، المسدس أصدر شظايا أحرقت جلدي وجرحت لحمي.

كانت رصاصتي طائشة، اخترقت ساعة الحائط على يسار بهيج، ثم استقرت في الجدار المبطن.

انتفض اللعين من مكانه وكان سيركض صوبي، لينتشل مني المسدس، ولكن هذه المرة كانت حواسي متيقظة، لن ينتصر عليَّ مُعتدٍ آخر.

أطلقت الرصاصة الثانية فأصابت رأسه وسقط أرضًا.

كانت سبابتي تنزف وتؤلمني بشدة، ولكن كان قلبي هانئًا.

تريد بتول أخذ حق عيسى بالقانون، لا مانع، ولكني لن أترك مجالًا لأي ثغرة، سواء كان الحكم في صالحنا أو ضدنا، بهيج لن يعتدي على أي طفل آخر.

خرجت من الغرفة وأغلقت بابها بالمفتاح كما كان، وألقيت المسدس بجيبي.

غسلت يدي من الدم ولففتها بالشاش، ثم خرجت إلى الشوارع.

تمشيت على كورنيش الزمالك.

يا الله، كم أن ساعة الفجر مريحة وفيها شفاء للروح، لا زحمة سير، ولا ضجيج سيارات.

استندت إلى السور، بعدما انتهت صلاة الفجر وبقيت أراقب انعكاس أضواء البواخر السياحية الملونة على صفحة نهرنا الخالد.

أسمع الأغاني وأرى الشباب يرقصون في المراكب. كم يبدون سعداء!

يسير من حولي الأحبة الشباب، ما أجملهم!

هل تعرضت والدة أحدهم للاغتصاب، أو أختهم للتحرش، أو هتك عرض أخيهم الصغير؟

سمعت ضيفًا في برنامج مدام مفيدة شيحة يقول إن واحدة من كل ثلاث سيدات تتعرض للعنف الجنسي.

الحالة مختلفة في عائلة شرف الدين، ابتلانا الله بحالتي اغتصاب وحالة تحرش وحالة هتك عرض، وكأن

المعتدين الجنسيين لم يجدوا ضحايا غير أعضاء عائلتي.

كان الأستاذ في الجامعة يقول لنا إن الأسرة لهي نموذج مصغر للمجتمع، إن استقرت الأسر، استقر المجتمع كله.

أهذا يعني أن حال مجتمعي بائسة كحال عائلة شرف الدين؟

لا أظن، فأنا لا أرى نظرة الانكسار والكسرة في أعين مَن حولي، كما أراها في عيني كلما نظرت إلى نفسي في المرآة، ولكني اعتدت احتراف إخفاء هذه النظرات المفجعة على كل مَن أعرفهم، ربما مَن حولي يفعلون الأمر نفسه على الرغم من أنهم أصيبوا بما أصابنا.

لا يعرف الناس ما يدور خلف الأبواب المغلقة، قد يرون نصيبك من الرزق، ولكنهم يجهلون حظك من الرُّزء.

الناس يرون تفوق عيسى، واجتهاد بتول في عملها، وجمال مريم ورقتها ورومانسيتها، وأموال زوجي الطائلة من العمل في الخارج، ولكن لا أحد يرى ضراوة مصائبنا. لا أحد يذيع خيبته على العلن على أي حال.

ليتني أعرف لسائق التاكسي طريقًا، والله لكنت أطلقت عليه الرصاص هو الآخر. وحده ربي يعلم كم زبونة غيري اغتصبها، فهجر زوجها فراشها وأذلها ليلًا ونهارًا، وعايرها بأنه لم يطلقها وقَبِل بها بعدما وطأها غيره.

تنفست نسائم الليل وودعت النيل الخلاب وأناسه السعداء، ثم عدت إلى البيت.

وجدت سيارة إسعاف تنطلق من أسفل عمارتنا.

دخلت شقتي، ولكني لم أجد فيها أحدًا سوى الكلب، فصعدت إلى شقة مريم.

وجدت شابين غريبين، أحدهما يتأبط ذراع نصرة والآخر يحادث منتصر، لعنه الله، وهو يصيح فيه بشيء لا أفهمه ولا أبالي به.

انتبه الأولاد لي وكذلك نصرة. يبدو أنها تعرف ما فعلته، فقد كانت تبتسم لي بفخر.

لم يفخر أي شخص بي من قبل.

سألتها:

- ماذا بكِ يا ماما نصرة؟ مَن هذا الشاب؟

- أنا الرائد نوح الألفي.

نظر إلى يدي اليمنى.

- ماذا أصاب يدك يا سيدتي؟

نظرت إلى كفي اليمنى فوجدتها ما زالت تنزف، وقد تبقع الشاش كله وصار لونه أحمر.

- لقد أسأت استخدام المسدس فجرحت نفسي.

أخرجت المسدس من جيبي واتجهت نحو الضابط الذي وضع يده على طرف مسدسه في حالة من التأهب.

رفعت يدي إلى أعلى وأنا أقول:

ـ أسلم نفسي. أنا قتلت بهيج سليمان دامس، لعنه الله في الأرض وفي السماء.

صرخت مريم وبكت بتول، وفرَّت الدموع من عينَي عيسى.

أمر الضابط أحد رجال المعمل الجنائي حتى يأخذ المسدس مني وهو يرتدي قفازات طبية، ثم يضعه بحذر في كيس غريب.

هرول أولادي الثلاثة تجاهي وعانقوني.

لم يعانقوني بهذا القدر من المحبة من قبل.

قبَّلت يد بتول ورأس عيسى ووجنتَي مريم. لا أخاف عليهم، سيعتنون ببعضهم في غيابي.

ربتت نصرة على ظهري وقالت:

ـ ستعودين إلى بيتك سريعًا يا أم الأبطال. النجس لم يمت، لا يستحق أن يُحرم أولادك منك بسببه.

كان نبأً محزنًا، ولكني لا أدري كيف كنت على وشك أن أحرم نفسي من حضن أولادي وأتركهم لقسوة منتصر.

على ذكر منتصر، استأذنت من الضابط قبل أن أخرج معه من الشقة ووقفت أمام زوجي.

صفعته الصفعة نفسها التي سددها إليَّ يوم اغتصبت، ثم قلت له:

ـ طلقني!

ودَّ أن يرد إليَّ الصفعة، ولكن الضابط صاح فيه، وحال بيننا ثم أخرجني من الغرفة.

كنت أظن أنه سيغل يدَي مثل الأفلام ولكنه لم يفعل. لم أبدُ كشخص له المقدرة على الركض والهرب على أي حال.

نزلنا من العمارة بين نظرات استغراب الجيران والمارة، ثم ركبت سيارة الشرطة.

لم أشعر في حياتي كلها بالحرية بقدر ما شعرت بها في طريقي إلى القسم، لمواجهة تهمة الشروع في قتل زوج ابنتي.

المرحلة السابعة

التقبُّل

٢٠

مايكل

(بعد الجريمة بثلاثة أيام)

أيقظتني أمي وطلبت مني أن أخرج لأنضم معها إلى عمي في الصالون.

رفضت.

كنت أمر بنوبة اكتئابية، ولا أملك ما يكفي من الطاقة لأفتح عينيَ حتى.

أصرتْ على أن أستيقظ، فتلمست في صوتها نبرة نحيب، ثم لمحت في عينيها حمرة البكاء.

انتفضت لأسألها:

- ماذا حدث؟

أجهشت بالبكاء، ثم نادت عمي بيتر ليأتي إلى الغرفة.

وجدها تبكي فربت على كتفها، ثم جلس بجواري على السرير.

ماذا فعل بها عمي؟ هل رفض مجددًا أن يرد إلينا حقنا في ميراث أبي؟

اللعنة على هذه الشراكة الأخوية التي أذلتنا!

سألتهما:

- ماذا جرى؟ أمي؟ ماذا حدث لكِ؟

أجابني عمي بهدوء:

- الأمر لا يخص أمك يا مايكل... إنه يخص عيسى.

- عيسى؟

- لا أدري ماذا أقول. وسائل التواصل الاجتماعي كلها تتناقل الخبر، ألا تفتح الفيسبوك هذا؟

- عن أي خبر تتحدث؟ هاتفي مغلق منذ يومين. لا طاقة لديَّ للتواصل مع أحد.

قالت أمي بصعوبة:

- إنها صابرين، حاولت قتل بهيج القذر لأنه اعتدى على عيسى.

تحمل كلمة الاعتداء الكثير من المعاني، ولكني كنت أعلم جيدًا أي معنى تقصده.

أعرف ما الذي يقدر هذا القذر على فعله بمن هم في سني.

ارتعشت وبكيت بحرقة، ربت عمي على كتفي وكذلك أمي، ثم قالت:

- وجدت الشرطة مقاطع له على حاسوبه وهو ينتهك القاصرين، واكتشفوا أنه هرب من كندا واستقر في مصر

بسبب قضية رفعها عليه شاب اسمه فريدريك لوبلان، لأن بهيج تحرش به. حبيبي، أنا أمك، كنتَ تقضي الوقت أنت وعيسى في صحبة هذا النذل، هل... هل آذاك؟

نظرت إلى أمي ولم أجد صوتي، ولكن عمي ربت على ظهري، وقال بحنان لا آلفه منه:

ـ عزيزي، لا تخف. نحن أهلك وعائلتك. لو بهيج هذا فعل أي شيء فقط أخبرنا، لقد تقدم عيسى ببلاغ ضده، سنفعل مثله وسنأخذ لك حقك. هل حاول بهيج أن يعتدي عليك بأي شكل؟

حدث أكثر شيء لم أتوقعه قَطُّ، ولم أود يومًا أن أقوم به.

بكيت أمام عمي وتحررت صرختي بعد سنين من الكبت، فأخذت أهز رأسي وأصيح:

ـ نعم! نعم! نعم!

ألقيت رأسي على صدر عمي فضمني بشدة، بينما عانقتني أمي من الخلف وأخذت أقول:

ـ منذ أربع سنوات كنت أسبح بمفردي في الصباح الباكر، ودخلت غرفة تغيير الملابس لأستحم. جذب ستارة الحمام ووقف أمامي عاريًا وطلب مني أن أتحسسه. حاولت أن أخرج من الحمام فلمسني بعنف ثم صفع مؤخرتي ونعتني بـ«المخنث». لو لم أركض سريعًا خارج الحمام لربما فعل بي ما فعله بعيسى.

تاهت كلماتي بين دموعي وصريخي، وأنا أشعر بعَبَرات أمي الحارة تسيل على كتفي وظهري وأنا أقول:

- أنا آسف، أنا آسف.

ضغط عمي على كتفي، وقال:

- لماذا تأسف يا ابن أخي؟

- لأنني جبان، لم أبلغ عنه، لم أقتص لنفسي، لم أحذر عيسى منه. اكتفيت بالخوف من حمامات السباحة ومن تغيير ثيابي خارج المنزل. لو حذرت عيسى لما كان نهشه الضبع.

- كنتَ في الثالثة عشرة من عمرك. طبيعي أن تخاف، لا لوم عليك يا حبيبي. لدينا فرصة لإصلاح الأمر. سنشهد مع عيسى ونرد له ولك حقكما. هيا! سنذهب إلى القسم، سنضع حدًّا لهذا الأذى.

* * *

لو كنت أعلم أن هذه ستكون ردة فعل أمي وعمي، لكنت أخبرتهما بما فعله بهيج منذ سنوات، ولكني بقيت أنكر ما حدث وأعافر لمحوه من ذاكرتي حتى غرقت في الاكتئاب والوحدة.

الجميع يتعامل معي كمراهق نكدي ومُنطوٍ وكئيب، ترهبه حمامات السباحة وغرف تبديل الملابس، ويمتعض من أي تلميحات جنسية طبيعية يتبادلها الشباب.

لا أحد يعرف ما حدث لي ولا أسباب رهابي.

بمجرد أن حكيت لعائلتي شعرت وكأن جبلًا رفع عن صدري.

طيلة الطريق، ظل عمي يعتذر، لأنه ظن أنني مدلل وأذهب إلى الطبيب ماجد ملاك على سبيل الموضة، ووعدني أنه سيدفع ثمن كل ما يلزم لإتمام علاجي وتعافيَّ النفسي.

ذهبنا إلى الضابط قطز المحمدي الذي يحقق في قضية عيسى.

دخلت أنا وعمي وقصصت عليه تفاصيل ما صار، لم يكن الأمر مخجلًا ومخزيًا كما ظننت.

ربما لأني كنت أقنع نفسي بضرورة فعل ذلك دون نجل من أجل عيسى، ولكني في الواقع، كنت أفعل هذا من أجل نفسي.

أخذ الضابط أقوالي وسألني بضعة أسئلة ثم قدم لي كوبًا من الكاكاو، وربت على كتفي ونعتني بـ«البطل»، وأخبرنا أن الطلقة التي أصابت بهيج سببت له شللًا كاملًا، وأنه لن يقوى على الحراك أو النطق مجددًا.

عدنا إلى العمارة، فوجدت لارا تنزل من المصعد في لحظة وقوفنا لانتظاره.

هي أيضًا كانت تبكي، وبدت في حالة يرثى لها بعدما عرفت ما صار لعيسى.

أخبرتني أنها حاولت التواصل معه، ولكن هاتفه مغلق

ولا تعرف له عنوانًا، فطلبت مني أن نذهب معًا لزيارته.

لا أدري إن كان من الصواب أن تراه في هذه الحالة، ولكني اتصلت ببتول وأخبرتها أنني قدمت بلاغًا ضد بهيج، وأنني ولارا نود أن نكون بجوار عيسى في هذه المرحلة العسيرة.

سمعتها تحادث عيسى ثم رحبت بمجيئنا.

فتحت لنا مريم الباب وعانقتنا بحنان ودفء، ثم قبَّلت وجنتيَ لارا وامتدحت حسنها.

لم يكن والد عيسى موجودًا، ولا أدري إن كان هرب من المنزل أم هم طردوه، ولكن أمي قالت لي إن طنط صابرين طلبت منه الطلاق.

كان كل من في البيت واجم الوجه.

شعرت بغربة في الشقة في غياب طنط صابرين التي كانت تلقاني كل مرة بابتسامة مسالمة ومحبة حقيقية وكميات لا تحصى من الطعام والحلوى والمشروبات.

أوصتنا بتول بأن ننتقي حديثنا وألا نفاتح عيسى في الأمر، إذا أراد هو الكلام سنترك له مساحة للحديث.

دخلنا إلى غرفته. كانت أضواؤها خافتة، وعيسى يجلس على مقعد البين باج المفضل لديه وكلبه يجلس على حجره.

كانت الغرفة نظيفة وتفوح منها رائحة معطر. أعتقد أنهم عطروها من أجل لارا فحسب، فدائمًا ما أجد غرفة عيسى مكبًّا للقمامة في كل زيارة إليه!

دخلت أولًا ثم لارا، فابتسم لنا ابتسامة باهتة وأشار كي نقترب.

كانت الندبات والكدمات تملأ وجهه بشكل لم يستوعبه عقلي، حتى غمر الكمد قلبي بسبب حال صديقي.

وضعت أمامه علبة المعكرونة التي اشتريتها له من مطعمنا المفضل، وكأنني أقدم إليه قربانًا.

لا أدري ماذا أقول!

تبادل ثلاثتنا النظرات، وطال الصمت، حتى وضعت يدي على كتف رفيق طفولتي وقلت:

- كان بهيج سبب رهابي من حمام السباحة. لقد حاول... حاول معي... اليوم قدمت بلاغًا إلى الشرطة. لستَ الوحيد يا عيسى.

لم يكن من المفترض أن أشير إلى الأمر، ولكن كان يجب أن أخبره أنه ليس بمفرده، ليس الحالة صفرًا.

ربت على يدي بامتنان ثم فرت دموعه، ولم يتمالك نفسه من بعدها فبكى.

عانقته لارا، فطوق ذراعيه حولها وأخذ يبكي ويرتعش في حضنها، وهي تقبِّل رأسه وتهمس إليه:

- أحبك. لن نتركك وحيدًا، نحن نحبك، نحن معك.

كانت ناضجة وحنونًا وبليغة.

تمكنت لارا من قول الكلمات الصحيحة في الوقت الصحيح، واستطاعت أن تحتويه كما لو كانت لها خبرات

أمهات الدنيا وحنانهن الرؤوم.

لا ندري كيف سينتهي الأمر! هل سيحاكم بهيج هنا أم سيسلمونه إلى كندا أم سيجد محاميه حجة للدفاع عنه؟

ما نعلمه علم اليقين أن في اليوم الذي صرخ فيه عيسى ونطق بما جرى له، أصيب بهيج بالشلل والخرس.

إنها سخرية القدر!

قد نشجع المزيد من ضحايا بهيج وأمثاله بالإبلاغ عما أصابهم، حتى وإن لم يمتلكوا ما يكفي من الدعم للإشارة إلى المعتدين عليهم، على الأقل سيعلمون أنهم ليسوا الوحيدين الذين تعرضوا لشكل من أشكال العنف الجنسي.

أمضيت مراهقتي المبكرة في الخوف والذعر والاكتئاب والبكاء.

خِفت من وصمة المجتمع ومن تبعات إعلاني عما جرى لي، خفت مِن أن يلقي عمي اللوم عليَّ، من أن تخشى أمي الفضيحةَ فتأمرني بالصمت، من أن يتجنب باقي زملائي التعامل معي أو تنفر مني الفتيات، ولا أحظى أبدًا بأي علاقة عاطفية صحية لأنني فتى تعرض للتحرش.

لو كنت وجدت شخصًا يخبرني بألا تخاف، لستَ وحيدًا، من حقك أن تكون ضحية، الفضيحة للجاني وليست للمجني عليه، لربما أمضيت هذه السنوات في التعافي عوضًا عن تضييعها في الندب والنحيب والانعزال.

قبل أن يُتوفَّى أبي - الله ينيح نفسه - بثلاثة أيام، أخبرني

قصة:

كانت هناك مجموعة من الضباع الضارية تعيث فسادًا في الغابة.

في ليلة، انقض أحدها على شبل من أشبال الأسد ملك الغابة وأكله حيًّا.

وصل الخبر المفجع إلى الملك، فسأله وزيره: «أنحذر الحيوانات؟».

زأر الأسد وقال: «لا! أتود أن تعرف حيوانات الغابة أن ملكها عجز عن حماية أشباله من الضباع؟ أخبر الحيوانات أن ابني مات غرقًا في النهر».

في الليلة التالية، انقضَّت الضباع على أشبال باقي الأسود كلٍّ على حدة، وآثرت الأسود جميعًا الصمت خوفًا من أن ينعتها أهل الغابة بالجبن والضعف، دون أن تعرف الأسود أنها جميعًا لقيت المصير نفسه.

صارت الضباع تنهش الأشبال دون حساب، حتى خلت الغابة من الأشبال، وبدأت الضباع تأكل الأسود الكبيرة.

فَنِيَ جنس الأسود كله، بما فيه الملك!

انتقلت الضباع إلى غابة جديدة، وقطعت الطريق على أسد يسير في صحبة ابنه.

هجمت على الشبل، لكن الأسد زأر وتصدى لها، ونبه الأسود الأخرى إلى أن هناك مجموعة من المعتدين.

تكاثفت الأسود، وهجمت على الضباع الضارية، ففتكت بها ونثرت عظامها في الطرق، لتكون عبرة لغيرها من الضواري.

انتهى أبي من سرد القصة، فعلقت:

- نعم، يا أبي. إن التعاون خير فضيلة.

- ليس هذا المغزى الوحيد من القصة يا مايكل. الأسد الأول زأر بالكذب وتستر على الجريمة التي حدثت في حق ابنه. أما الأسد الثاني فزأر وطلب العون حتى ينجو بابنه وأهله أجمعين. ليس كل مَن زأر تحسبه أسدًا جسورًا يا بني.

- المغزى من القصة ألا نكذب على من حولنا يا أبي؟

- بل المغزى أن نتعلم شجاعة طلب العون.

لم أتأثر بالقصة وقتها. شعرت بأنها نسخة سوداوية من فيلم «الأسد الملك سيمبا»، فتجاهلت عظتها.

لم أتذكر تفاصيل هذه القصة التي اختار أبي أن تكون آخر نصيحة يعطيها لي قبل وفاته في حادث سير، حتى هذه اللحظة.

اللحظة التي قررت فيها أنا وعيسى ولارا أن نتعاضد حتى نزج ببهيج في السجن، ولتذهب أساطير المجتمع عن الرجولة والنخوة إلى الجحيم.

اليوم، سنكسر دائرة الخزي ووشم ضحايا العنف الجنسي بالعار.

اليوم، سيزأر جيلي ويقضي على الضباع الضارية.

خاتمة

تشير أحدث إحصائيات منظمة الصحة العالمية إلى أن واحدة بين كل ثلاث إناث، وواحدًا بين كل ستة ذكور حول العالم، يتعرضون للعنف الجنسي بمختلف أنواعه وهم تحت سن السادسة عشرة.

٣٪ فقط من ضحايا العنف الجنسي من الذكور، يبلغون عن الأمر للسلطات.

تؤكد الدراسات الحديثة أن أغلب الذكور يدخلون في حالة من الإنكار النفسي قد تستغرق عشرين عامًا، حتى يتمكنوا من الاعتراف بأنهم كانوا ضحايا للعنف الجنسي في مرحلة من حياتهم.

من أجل هؤلاء الناجين والناجيات جميعًا، كتبتُ هذه الرواية.

شكر خاص

دكتور فيرن جرين

البروفيسور شانون ماكري

البروفيسور آدم دين

الأستاذ دانيال كابلان

رو

نورا تميم

سيلفيا يوسف

آرون براون

جاك نويل

جيمي ماي

مايك شوركين

نولان آدمز

عن الكاتبة

وُلدت ميرنا المهدي في حي المعادي بالقاهرة، وتخرجت في مدرسة «ليسيه الحرية» في المعادي، ثم في كلية «الألسن» جامعة عين شمس. تخصصت في أدب وترجمة اللغتين الفرنسية والإسبانية. حازت عدة جوائز أدبية من سفارتي كندا وفرنسا والمركز الثقافي الفرنسي، لتركِّز بعدها في كتابة أدب الإثارة والتشويق.

صدر لها: رواية «قضية ست الحسن» (تحقيقات نوح الألفي ـ ١، ٢٠١٨)، والرواية القصيرة «ثلاثة عشر» (٢٠٢٠)، ورواية «روك آند رول» (٢٠٢٠)، ورواية «صديقي السيكوباتي» (٢٠٢١)، و«قضية لوز مُر» (تحقيقات نوح الألفي ـ ٢، ٢٠٢٢)، ورواية «دليل جدتي لقتل الأوغاد» (٢٠٢٣).

للتواصل مع الكاتبة

Email: mirnaelmahdy.1@gmail.com

Facebook: www.facebook.com/
MirnaElMahdyWriter

Twitter: @Mirna_El_Mahdy

Instagram: @mirnaelmahdy

Goodreads: ميرنا المهدي

صور هذا الكود بكاميرا هاتفك

للتواصل مباشرة مع الكاتبة:



ولكني أشرت إليها ألا تنهض ولففت إصبعي بمنديل السفرة وأنا أصيح في أبي:

- لقد أخبرتني منذ عشر سنوات أن وليد الكيلاني مات بالإيدز. وأنا صدقتك، صدقتك لأنني غبية... أنا غبية!

علقت أمي بخنوعها المعهود:

- حبيبتي اهدئي، نحن...

- أنتِ تواطأتِ معه. صرتِ تكذبين مثله يا أمي؟

صرخ أبي:

- نعم، تواطأت معي لنحميكِ من الشياطين التي تتكالب عليكِ وتوسوس لكِ بفضيحتنا.

سألتنا جدتي:

- أي فضيحة؟ عمَّ تتحدثون؟ مَن وليد هذا؟

- هيا يا أبي! أخبر أمك مَن يكون وليد الكيلاني، أخبرها ماذا فعل بي بالتفصيل وما الذي فعلته أنت في المقابل.

- ماذا فعلت بكِ؟ أنا سترتكِ.

- لم أكن مفضوحة!

- هذا لأنني تداركت الأمر وأنقذتك!

- بل دفنتني حية! أخرستني!

- سترك الرب. لم يعرف أحد ما صار وأنتِ تصرين على المجاهرة؟

- المجاهر هو الذي يسير بين الناس مختالًا بمعاصيه وذنوبه، أنا لم أرتكب أي ذنب. طالبت بحقي الذي أحله الشرع وسَنه القانون لأمثالي، ولكنك منعتني من استرداد حقي.

- أي حق؟ أتسترد الحقوق بعد قرابة العشرين عامًا؟ الجميع نسي الأمر.

- ولكنني لم أنسَ، لم ولن أنسى أبدًا.

- كفى تشبثًا بدور الضحية. أنت تفسدين حياتك بكامل إرادتك وكأنك الفتاة الوحيدة بالعالم التي تعرضت للتحرش!

صاحت جدتي:

- تحرش! أي تحرش؟ مَن لمس حفيدتي؟

صرخت في أبي قائلة:

- وهل لأنني لست الوحيدة التي تحرش بها معلمها، يجب أن أتعامل مع الأمر بطبيعية، وكأن الأمر ليس جريمة يستحق وليد وأمثاله أن يعاقبوا عليها؟

- قررتِ الإبلاغ عنه منذ عشر سنوات فحسب، بأي دليل؟ ماذا ستستفيدين من فضيحتنا؟ لقد نجاكِ الله وأبقاكِ عذراء بكرًا وأنتِ تصرين على إغراقنا في الوحل.

- لقد غرقتَ في الوحل حتى أنفك يا أبي لحظة أن تنازلت عن حقي.

- اخرسي يا سافلة! لقد أخذت لكِ حقك منه.

- نعم، أنت محق، لقد صفعته. يا لك من بطل! أتعرفان

كم فتاة مثلي تعرضت لتحرش وليد بها، لأنكما جبانان ورفضتما الإبلاغ عما فعله بي!

- يا قليلة الأدب! أنا لم أبلغ عنه لأحميكِ.

- حقًّا؟ وكيف ذلك؟

- لأنه أخبرني أنك أنتِ التي أصررت على الاختلاء به في غرفة المدرسين، وطلبتِ منه أن يتحسسك. نحن أهلك ولن نصدق افتراءه عليكِ، ولكن الناس سيصدقون كلامه. أتودين أن يعاملك الجميع على أنك عاهرة؟ ماذا عن زوجك المستقبلي؟

- فليذهب الأزواج والرجال جميعًا إلى الجحيم!

- حسنًا، أنتِ اخترت العنوسة بإرادتك. ماذا عن أختك؟ أكان بهيج يتقدم ليتزوجها إذا عرف أن أختها أغرت مدرسها ودفعته إلى لمسها؟

- كفى كذبًا! أنت صدقته، صدقت أن ابنتك ذات الأحد عشر عامًا طلبت من مدرسها البالغ أربعين عامًا أن ينتهكها ويتحسسها من أسفل تنورتها.

- قليلة الحياء! أنا لم أصدقه!

- إذن لماذا خَتنتني يومها يا أبي؟

رأيت أمي تبكي في صمت كعادتها، بينما نظرت جدتي إلينا جميعًا في ذهول، ثم بصقت في وجه أبي وقالت:

- لعن الله الساعة التي أنجبتك فيها. لو كان أبوك حيًّا لأفرغ طلقات بندقيته في رأسك، يا وغد، يا عديم النخوة!

التفتت جدتي إلى أمي، وقالت:

ـ وأنتِ! كيف لابنتك أن تلجأ إليكِ فتعلميها الصمت وأنتِ أعلم الناس بضراوة الانتهاك.

ـ لم تنتهك يا حماتي، لم يحدث لها شيء. ما زالت بكرًا، و...

ضحكت ضحكة ساخرة وقلت:

ـ الحمد لله، ما زلت بكرًا. أهذا كل ما يهمك يا أمي؟ ألا نفقد عذريتنا حتى لو سنفقد في سبيل ذلك سلامة روحنا؟ لا يهم إن كنتما اعتديتما على حرمة بدني واقتطعتما منه قطعة لأن مَن تحرش بي أقنعكما بأنني أغريته. ما يهم أن غشاء بكارتي لم يُفض وأنني لن أفضحكما ليلة زفافي.

قالت جدتي لوالدي:

ـ يا عاري! خسيس يتحرش بابنتك يا منتصر فتتركه يحيا ويأكل ويشرب؟ حقًّا، لقد مات آخر رجل بهذه العائلة في ١٩٧٣. رجل! الأمر لا يحتاج إلى رجل يا منتصر، بحق خالق الخلق، لو كنت أعرف ما أصاب حفيدتي، لكنت قتلت وليد هذا بيدي ووقفت أزغرد على جثته! كيف ستقف أمام الله يوم نبعث يا منتصر؟ ماذا ستقول له حين يسألك عن حق بنيتك؟ ألهذا تضطهدها؟ لأنها تذكرك بانعدام مروءتك؟

نهضت جدتي وقبَّلت رأسي ويدي، ثم قالت:

- حقك عليَّ يا بنيتي. والله، إن ما تقصيه من ظفر أصغر إصبع في قدمك لَفيه من المروءة ما يفيض عما يملكه ابني!

فقدت السيطرة على نفسي وبكيت بين ذراعَي جدتي التي عانقتني بحنان.

غضب أبي وقلب صحن طعامه، ونهض عن السفرة وهو يتمتم بالسباب واللعنات.

اقتربت أمي لتعانقني، ولكن جدتي صاحت فيها:

- أنتِ بالذات، حسابك مضاعف. اتبعي زوجك، فليحشركما الله معًا، اتبعيه!

خافت أمي من صياح جدتي وتبعت أبي إلى غرفته، ثم سمعته يصيح فيها.

ظلت جدتي تعانقني وتقبل رأسي ويدي وهي تكرر:

- آسفة يا بنيتي، حقك عليَّ.

لقرابة عقدين من الزمن، لم أرد ما هو أكثر من ذلك، اعتذارًا وقصاصًا وشعورًا بالمؤازرة.

كنت أظن أن كبت مشاعري والتستر على ما صار سيكسبانني قوة ألا يشفق عليَّ أحد، ولكن بمجرد أن بُحت بتفاصيل ما حدث، وقابلت جدتي وهني وضعفي باحتضان دافئ، شعرت براحة.

أعلم أنني لم أتعافَ بعد، ربما سأظل أكره الرجال وأنعتهم بـ«الخنازير» وأمتعض من مجرد التفكير في لمسهم لجسمي لآخر يوم في حياتي.

ولكني ولأول مرة، أشعر وكأن وطأة صدمة ما حدث لي منذ ثمانية عشر عامًا، قد خفت قليلًا.

مسحت الجدة نصرة دموعي، ثم قالت لي مبتسمة:

- هيا، فلنترك هذا البيت الغم ونذهب للجلوس على النيل، فلو رأيت وجه أبيكِ مجددًا، لأرسلنَّ روحه إلى المكان نفسه الذي أرسلت إليه أشرف.

- أتعترفين أنكِ حقًّا سممتِ زوجك؟

- أيتها البلهاء، بالطبع لم أسممه.

- تنفين تسميمه، ولكنك لا تنفين قتله كليًّا.

- نعم، قتلته لأنه كان ثرثارًا مثلك. ستخرجين معي أم أتركك هنا بمفردك معهما؟

١٣

عيسى

(قبل الجريمة بيوم)

أخذت من ماجد كيس رقائق البطاطس بالجبنة وزجاجة المياه الغازية.

استرخيت في مقعد البين باج الملون، فجلس على المقعد المقابل لي.

قصصت عليه تطور علاقتي بلارا، مقابلاتنا كل صباح للسير معًا بمحاذاة النيل، ثم ركوب السكوتر الكهربائي في طريقنا إلى النادي والقفز في المسبح، ثم تناول الفطور وشرب عصير الليمون بالحليب.

كنا نحب الأطعمة ذاتها من المطاعم نفسها، الموكا الباردة وكعك الشوكولاتة من مقهى «No Deal»، آيس كريم الزبادي بالتوت من «Gelato Amareno»، المعكرونة الروزيه بالدجاج من «O's Pasta»، وبيتزا المارينارا المخصوصة من «Maison Thomas».

ابتسم ماجد قائلًا:

- أرى أن شهيتك تحسنت.

- نعم، أعتقد أن الأمر مرتبط بها. جلوسها أمامي يفتح شهيتي، حتى في غيابها، بمجرد أن أفكر بها أشعر بالجوع. هل هذا يجعل مني شخصًا مفتونًا أم مَفجوعًا؟

- هذا يجعل منك شخصًا مقبلًا على الحياة. مَن يستمتع بالطعام يستمتع بالدنيا.

- أتفق معك. بالأمس، دخلنا سينما زاوية. هي مولعة بالأفلام الإيطالية، فعلت أكثر الحركات ابتذالًا وأمسكت يدها في أثناء عرض الفيلم، ولكنها وضعت رأسها على كتفي بمنتهى العفوية، كانت تفوح من شعرها رائحة الفانيلا، فغمرني شعور لم أشعر به منذ فترة طويلة، السعادة.

- هذا تقدُّم عظيم يا عيسى.

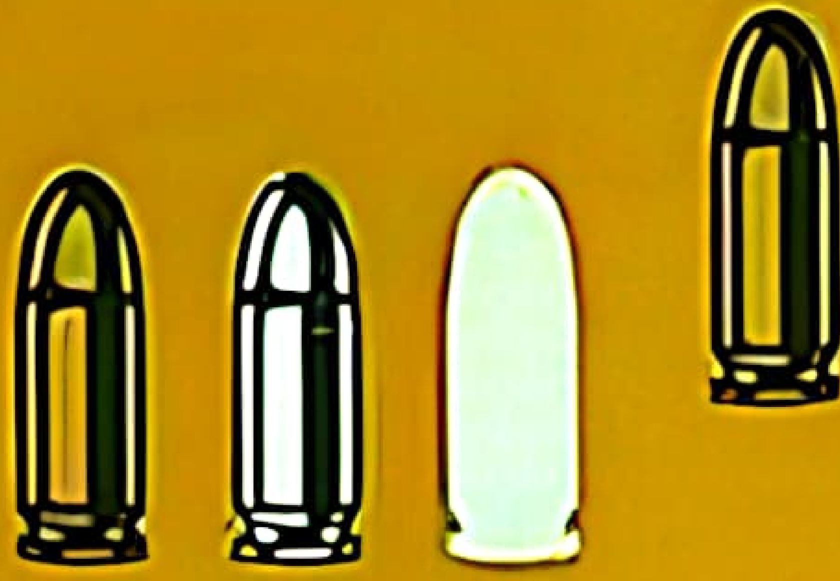
- أتظن ذلك؟

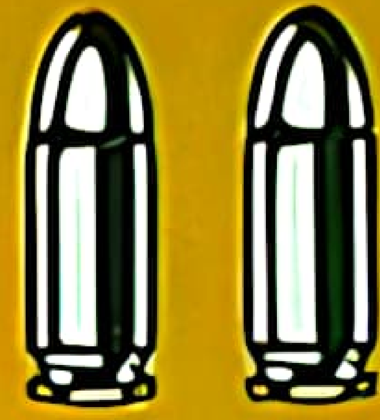
- بل أنا واثق، للارا تأثير عظيم عليك.

- لأن لديها هذا السحر النادر. إنها تعبر عن نفسها بسلاسة، تربت على كتفي حين تود أن تتعاطف معي، وتعانقني إذا تلمست حزني، وتصفق لي وتلمع عيناها فخرًا إذا أصبت في شيء. لا تتردد في النطق بما يدور في خلدها أو ما يغمر قلبها، وكأنها لا تبالي برد فعل أي شخص تجاه صراحتها ووضوحها. أعني، كيف يكون المرء شفافًا كالزجاج ولا يخاف من أن يكسر بسهولة؟

- هكذا تكون حال كل مَن يتصل بمشاعره ويفهم ذاته واحتياجاته. الوضوح مع النفس يجعلك تصل إلى مرحلة عليا من الصفاء النفسي.

- لم أتعامل في حياتي مع شخص يملك هذا القدر من النضوج العاطفي والتصالح النفسي. أليست باهرة؟





اكتشفتُ الليلة أن كل فرد من عائلتي قد قَتل مرة على الأقل!

وقفت خلف جدتي وهي تفتح باب الغرفة لأجد جثة هذا الوغد عارية.

بالطبع لم أشك في قاتل غير جدتي! ليس لأنها الوحيدة في بيتنا التي تملك سلاحًا احترفت استعماله منذ أيام شبابها، وليس لأننا نعلم أنها قتلت زوجها السابق، بل لأنها فور أن رأت الجثة، ربتت على ظهري وقابلت نظراتي المرتاعة بابتسامة حنون وكأنها تقول لي: «جثة هذا الوغد هي هدية تفوقك في الثانوية العامة. اسعَد يا عيسى!».

لم أسعد، فقد أوصيتهم ألا يقتلوه بدوني، فلا يجوز أن يُطلق غيري الرصاص عليه، لكن يبدو أنهم استغلوا غيابي في قسم قصر النيل ليمارسوا العادة الأقرب إلى قلوبهم؛ تجاهل رغباتي.

وددتُ أن أعاتب جدتي لأنها خرقت قواعدها لقتل الأوغاد، لكن نظرات هذا الضابط الذي يقف خلفنا وفي يده ليمونة منعتني من الكلام...



